

الأزواج

مِنْ سُنن اللَّه في خَلقِه

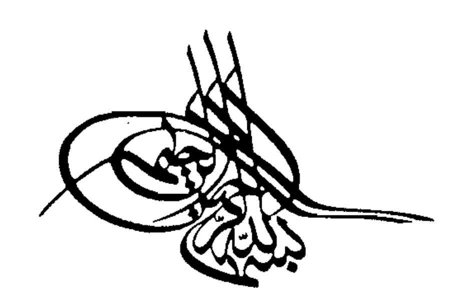
بقلم الاستاذ الدكتور
السيّد سلامة السقّا
استاذ الامراض الباطنية والقلب
كلية الطب - جامعة الاسكندرية

دار النهضة الإسلامية

تنسيق
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأزواج

من سنن الله في خلقه



الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م
الحقوق محفوظة للناشر



دار النهضة الإسلامية
ص .ب : ١١٣/٥٩٧٤ - الحمرا - بيروت، لبنان
P.O.Box: 1915 Cleveland,Ohio 44106 U.S.A

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدّمة

العقيدة الاسلامية والمبدأ:

الانسان في الحياة الدنيا طراز خاص من المخلوقات يتميز عن غيره بما لديه من فكر، وينهض بما عنده من فكر عن الكون والحياة والانسان وعن علاقتها جميعاً بما قبل الحياة الدنيا وما بعدها. . وهذا الفكر الكلي عن الكون والانسان والحياة وما وراءها هو القاعدة الفكرية الأساسية التي تبنى عليها جميع الأفكار عن الحياة.

والحياة الدنيا بالنسبة للإنسان لغز كبير، ومجموعة من الألغاز والطلاسم وأسئلة لا تنتهي عن الوجود والبداية والنهاية والأهداف والقيم وغير ذلك مما يشكل عقدة كبرى لا تنتهي، ولا يمكن حلها إلا بإعطاء الفكرة الكلية عن الوجود أي عن الكون والحياة والإنسان بصورة صحيحة توافق فِطرة الإنسان ويقتنع بها عقله ويمتلىء بها قلبه طمأنينة، وقد عمد الإسلام إلى هذه العقدة الكبرى في حياة الإنسان فحلها حلاً مقنعاً تماماً للعقل، وموافقاً تماماً للفطرة ومالئاً القلب طمأنينة، وجعل الدخول في الإسلام متوقفاً على الإقرار بهذا الحل إقراراً صادراً عن العقل وليس إقراراً بالتبعية أو بالوجدان والعاطفة أو رأي الأغلبية. ولذلك كان أساس الاسلام هو العقيدة الاسلامية، وهي أن وراء هذا الكون والانسان والحياة خالقاً واحداً خلق كل شيء وهو الله تعالى،

وان هـذا الخالق واجب الـوجود غـير مخلوق، وأنه أوجـد الأشيـاء من عدم، وتستند الأشياء جميعها في وجودها إليه ولا يستند هو إلى شيء.

فالأشياء التي يدركها الانسان مشاهـدة ومحسوسـة فهي موجـودة قطعاً، وهي الكون والانسان والحياة، وكلها محدودة ومحتاجـة لغيرهـا، فالحياة محدودة لأن مظهرها فردي ولأنها تنتهي في الفرد، والكون محدود لأنـه مكون من محـدودات وهي الأجرام، ومجمـوع المحدودات محـدود بداهة، وكذلك الانسـان محدود فهـو ينمو إلى حـد لا يتجاوزه، وهـذه الموجودات محتاجة إلى غيرها وذلك مشاهد محسوس فـالاجرام السـماوية محتاجة إلى النـظام والقوانـين التي تربط بينهـا وتحدد مسـاراتها، والنـار محتاجة إلى من يشعلها، والعناصر حين إتحادها لتكوين مركبات معقـدة محتاجة إلى خلطها بنسب معينة وتحت ظروف معينة من حـرارة وضغط وزمن وغيره وهذه العوامل لا تأتي من ذات العناصر وإنما من خارجها، ولذلك فالموجودات لكونها محدودة ولكونها محتـاجة فهي غـير أزلية فهي محتاجة إلى الموجد وإلى البقاء، فهي جميعها مخلوقة لخالق أوجـدها وحـدد لها طبائعها وخواصها وكمياتها وتوزيعها.

وهـذا الخالق للمـوجودات ـ الكون والانسـان والحيـاة ـ إمـا أن يكـون مخلوقاً لغـيره أو خالقـاً لنفسه أو أزليـاً واجب الوجـود. وكونـه مخلوقاً لغيره بـاطل لأنـه يكون محـدوداً، وأما أنـه خالق لنفسـه فباطـل أيضاً لأنه يكون مخلوقاً لنفسه وخالقـاً لنفسه في آن واحـد وهذا بـاطل أيضـاً، فلا يبقى إلا أن يكـون الخالق أزليـاً واجب الـوجـود وهـو الله تعالى. . ويكفي أن يتدبر الانسان ما حولـه من موجـودات وأن يتأمـل أي مظهر من مظاهر الحياة من حولـه أو أي ناحيـة من نواحي تـركيب جسمه ليدرك وجود الخالق المدبر الحكيم ويؤمن بعقله إيماناً راسخـاً لا

تشوبه شائبة. . فالله سبحانه وتعالى حقيقة ملموسة من وجود مخلوقاته، والإنسان حين يخاف الله فإنه يخاف من ذات موجودة حقيقية يلمس وجودها بالحس، وحين يعبد الله فانه يعبد ذاتاً حقيقية ملموس وجودها حقيقة.

وقد حتم الإسلام على الإنسان إستعمال العقل لإدراك وجود الله. ونهى عن التقليد وجعل العقل هو الحكم في الإيمان بوجود الله ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران / ١٩٠]. . ولو أن الإيمان بالخالق فطري في كل إنسان وهو أساس غريزة التدين ومظاهرها من تقديس وتأليه، إلا أن هذا الإيمان الفطري يأتي عن طريق الوجدان وهو طريق غير مأمون العاقبة إذ قد يضفي الوجدان على ما يؤمن به صفات لا تتناسب مع الألوهية مثل التجسيد والمادية والشرك وغير ذلك من خرافات. . ولذلك كان منهج الاسلام هو ضرورة استخدام العقل في الوصول إلى إدراك وجود الله سبحانه وتعالى، أما ما عدا ذلك من إدراك ذات الله وصفاته فهي فوق قدرة العقل وخارج حدود إمكانياته وطاقاته المحدودة فالعقل الإنساني بقدراته النسبية المحدودة لا يمكنه إدراك ما هو غير نسبي وغير محدود؛ فنحن ندرك وجود الخالق من موجوداته كما ندرك وجود طائرة من سماع صوتها ولكن من المستحيل أن ندرك ما بها من مواد وأشخاص ووقود وغير ذلك.

والانسان بفطرته يقدس خالقه، وهذا التقديس هو العبادة، وهي العلاقة بين الخالق والانسان، وهي علاقة لا بد لها من نظام يحددها ويبينها وإلا انتهت إلى الخلل والاضطراب، وهذا النظام لا بد أن يأتي من الخالق وليس من الانسان، وذلك أن الانسان لا يتأتى له

إدراك حقيقة الخالق حتى يضع نظاماً بينه وبينه، ولما كان من الضروري أن يبلغ الخالق نظامه للانسان لذلك كان لا بد من الرسل يحملون المنهج إلى الناس. . وقد ثبت بالدليل العقلي أن القرآن هو كتاب الله، فهو لم يأت من العرب ولم يأت من محمد لعموم الأدلة العقلية على ذلك. . وبما أن محمداً هو الذي أتى بالقرآن ـ كلام الله وشريعته ـ فيكون محمد قطعاً رسولاً ونبياً بالدليل العقلي.

وبذلك يأتي الإيمان اليقيني بالله وكتابه ورسوله عن طريق العقل ولا بد أن يأتي عن طريق العقل، وهذا الايمان هو الركيزة التي يقوم عليها الايمان بكل ما جاء في الكتاب الكريم وما أخبر به الرسول الأمين، ومن هنا كان الإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار والحساب والعذاب والملائكة والجن والشياطين وغير ذلك مما جاء بالقرآن الكريم أو بحديث متواتر؛ وهذا الإيمان وإن كان عن طريق النقل والسمع لكنه في أصله إيمان عقلي لأن أصله ثبت بالعقل؛ فعقيدة المسلم تستند إلى العقل أو إلى ما ثبت أصله عن طريق العقل.

ولذلك لا يعني عدم إدراكنا الحسي للجن أو للشياطين أنها غير موجودة، وذلك أن وجودها قطعي الثبوت قطعي الدلالة بنصّ القرآن الكريم، وكذلك لا يعني عدم إدراكنا لما في بعض المخلوقات من ازدواجية أنها لم تخلق أزواجاً فالله سبحانه وتعالى قد خلق من كل شيء زوجين إثنين بنص القرآن قطعي الثبوت قطعي الدلالة. ولذلك وجب على المسلم أن يؤمن بكل ما جاء في القرآن الكريم وما جاء به الرسول الكريم قطعاً سواء كان ذلك متعلقاً بالعبادات أو المعاملات أو العقوبات أو المطعومات أو الملبوسات أو الأخلاق، فالكفر بآية ﴿وأقيموا الصلاة﴾ كالكفر بآية ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾

وكالكفر بآية ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ وكالكفر بغيرها من الأحكام الشرعية أو الأخبار الغيبية، ولا يتوقف الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة القطعية على العقل بل لا بد من التسليم المطلق بكل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء / ٦٥].

وباستقراء واقع الاسلام وأحكامه الشرعية نجد أن الاسلام طراز خاص في الحياة متميز عن غيره تماماً، وهو يفرض على المسلمين نظاماً خاصاً للتفكير والحياة لا يتغير ولا يتلون، ويحتم عليهم التقيد بهذا الطراز الخاص فلا يطمئنون فكرياً ولا نفسياً لغيره من طرز الحياة وأساليبها المختلفة؛ فحين أعطى الاسلام للانسان الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وما وراءها فهو بذلك قد أمده بالفكر الأساسي الذي لا يوجد قبله فكر مطلقاً وهو العقيدة التي جاءت نتيجة بحث عقلي فهي عقيدة عقلية، وهي بذلك تنبثق عنها أفكار وتبنى عليها أفكار هي معالجات لمشاكل الحياة أي الأحكام الشرعية التي تعالج مشاكل الحياة أي نظام الاسلام ومن هنا كان الاسلام عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام فهو بذلك «مبدأ».

ويجب أن ندرك أن أفكار الاسلام ليست معلومات لمجرد المعرفة وليست أبحاثاً في الفلك أو الطب أو غيرها، وإنما هي مفاهيم لها مدلولات واقعية في معترك الحياة، وكل مدلول له واقع يمكن للإنسان أن يدركه ويشعر به سواء كان محسوساً أو ظاهراً أو مغيباً؛ أو كان مما له واقع محسوس كالأفكار والمعالجات، فمفاهيم الإسلام إنما هي ضوابط لسلوك الإنسان في الحياة الدنيا؛ ولذلك فالمسلم يجب أن يدرك أن نصوص الشريعة كتاباً وسنة إنما جاءت للعمل بها وتطبيقها في

معترك الحياة دون تهاون أو تباطؤ، وأن الشريعة لم تأت للتعلم وإنما للتطبيق العملي وإلا أصبحت مجرد معارف لا وجود لها في معترك الحياة كما يحاول أعداء الاسلام جعلها كذلك بقوة التبشير والاستعمار والعملاء في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي وغيره.

الشخصية الإسلامية:

ويتميز الإنسان بعقله، ويدل سلوكه على إرتفاعه أو إنخفاضه ويرتبط سلوك الانسان بمفاهيمه إرتباطاً حتمياً لا ينفصل عنها، «**فالسلوك**» هو أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع غرائزه أو حاجاته العضوية فهو يسير بحسب الميول الموجودة عنده للإشباع سيراً حتمياً، وعلى ذلك تكون مفاهيم الإنسان وميوله هي قوام شخصيته ولا دخل لشكله ولا لملابسه ولا لغير ذلك في شخصيته، فالشخصية تتألف من عقلية الإنسان ونفسيته.. «**فالعقل**» هو الأساس لربط الواقع بالمعلومات أو لربط المعلومات بالواقع وذلك لتكوين المفاهيم لدى الإنسان فعقلية الانسان هي الكيفية التي يجري عليها عقل الشيء أي إدراكه أو هي الكيفية التي يربط فيها الواقع بالمعلومات ويتم ذلك بالقياس إلى قاعدة أو قواعد معينة، ومن هنا كان اختلاف العقليات كالعقلية الاسلامية التي تستخدم الفكر الإسلامي أساساً للقياس، والعقلية الشيوعية والعقلية الرأسمالية والعقلية الفوضوية وغيرها.. وهذا الربط بين الواقع والمعلومات ينتج «**المفاهيم**» التي تعيّن وتحدد سلوك الإنسان نحو الواقع المدرك وتعيّن له نوع الميل نحو هذا الواقع من حيث الإقبال عليه أو الإعراض عنه، أي تحدد له ميلاً خاصاً.

أما «**الميول**» فهي الدوافع التي تدفع الإنسان للإشباع مربوطة بالمفاهيم الموجودة لديه عن الأشياء التي يراد منها أن تشبع، وتُحدثها

عند الإنسان الطاقة الحيوية التي تدفعه لإشباع غرائزه وحاجاته العضوية وما يتم من ربط بين هذه الطاقة والمفاهيم. . وهذه الميول هي التي تكون نفسية الإنسان. . «**فالنفسية**» هي الكيفية التي يجرى عليها إشباع الغرائز والحاجات العضوية. فهي مزيج من الإرتباط الحتمي بين الدوافع والمفاهيم الموجودة لدى الإنسان مربوطة بمفاهيمه عن الحياة.

ومن هذه العقلية والنفسية تتكون الشخصية، والعقل وإن كان وجوده حتمياً لدى الإنسان إلا أن تكوين العقلية يجري بفعل الإنسان، وكذلك الميول فهي فطرية لدى الإنسان إلا أن تكوين النفسية يجري بفعل الإنسان. وبما أن وجود قاعدة يجرى عليها قياس المعلومات والواقع حين الربط هو الذي ينتج المفاهيم، وبما أن الامتزاج بين الدوافع والمفاهيم هو الذي يبلور الدافع ليصبح ميلاً، لذلك كان للقاعدة المتخذة أساساً لقياس المعلومات والواقع حين الربط الأثر الأكبر في تكوين العقلية وتكوين النفسية أي الأثر الأكبر في تكوين الشخصية وتحديدها تحديداً خاصاً متميزاً. . فإن كانت هذه القاعدة التي يجري عليها تكوين العقلية نفس القاعدة التي يجري عليها تكوين النفسية تميزت الشخصية بلون خاص وطابع مميز. وإن اختلفت القاعدتان كانت عقلية الإنسان غير نفسيته ويربط دوافعه بمفاهيم غير المفاهيم التي تكونت بها عقليته فتختلف أفكاره عن ميوله وتصبح شخصيته غير متميزة.

ومن هذا المنطلق عالج الإسلام الإنسان معالجة كاملة لإيجاد شخصية إسلامية متميزة عن غيرها. فعالج بالعقيدة أفكاره، فوضع له القاعدة الأساسية التي يبني عليها أفكاره ومفاهيمه، فيكون تمييزه للفكر

أياً كان بقياسه بالعقيدة الإسلامية؛ فيكون الفكر صواباً إن وافق العقيدة الإسلامية ويكون الفكر خاطئاً إن خالف العقيدة الإسلامية بغض النظر عن قائله أو معتنقه، فالعقيدة هنا قاعدة فكرية ومقياس ثابت وصحيح للأفكار وأساس واحد لتكوين عقلية المسلم. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عقله الذي يعقل به» وبذلك يأمن انحراف الفكر أو اعتناق الفاسد من الملل والنحل والمذاهب المختلفة.. وفي نفس الوقت فإن ما يصدر عن الإنسان من أعمال تمليها حاجاته العضوية وغرائزه تعالجها الأحكام المنبثقة عن العقيدة فتنظمها وتنسقها فهو يميل إلى ما أحل الله ويندفع إلى أداء الواجبات وتعاف نفسه المحرمات. قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» فالمسلم لا تُقبل نفسه على الخمر ولا تميل إليها لأنها محرمة بغض النظر عما يقال عن آثارها الضارة. فالنفسية الإسلامية تجعل ميولها كلها على أساس الإسلام، فالإسلام هو المقياس الوحيد للحسن والقبح، وهو مقياس دائمي فلا يصبح الحسن قبيحاً ولا يتحول القبيح إلى حسن. فالشرع هو المقياس الوحيد لإشباع الغرائز والحاجات العضوية عند المسلم.

والإنسان حين يجعل من الإسلام مقياساً لأفكاره وأعماله وميوله يصبح شخصية إسلامية بغض النظر عن غناه أو فقره، عِلْمه أو جهله، أو وضعه الاجتماعي أو الوظيفي فكلها شخصيات إسلامية تعقل وتهوى تبعاً لما جاء به الإسلام وترفض ما عداه.

وتتسم الشخصية الإسلامية بصفات تميزها عن غيرها من الشخصيات، وذلك نتيجة طبيعية للتقيد بأوامر الخالق ونواهيه ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك/١٤] فالمسلم الذي لا

يبتغي إلا رضوان الله تعالى، والذي يدرك صلته بالله لا شك أنه يفهم الحياة فهماً مستنيراً، ولا يختل تـوازنه فيـأخذ بحـظه من الدنيـا تاركـاً الآخرة، ولا يأخذه الهوس الديني والرهبانية، بل يأخذ بأسبـاب الدنيـا والآخرة، فهو دائماً ذاكرٌ لله خاشعٌ مصـلٍ مُزَكٍّ، غـاضٌ لبصره حافظٌ لفرجه مُعرِضٌ عن محارم الله حـافِظٌ للعهد والأمـانة آمـر بالمعـروف ناهٍ عن المنكر مجاهدٌ في سبيل الله بماله ونفسه، قويٌّ صابرٌ صـادقٌ مُعرضٌ عن اللغو، ساعٍ لتنمية ثقافته الإسلامية، مداومٌ على الطاعـات مثابـرٌ عليها لتقوية نفسيّته وترقية شخصيتـه في طريق القـرب من رضوان الله سبحانه وتعالى.

وتتفـاوت الشخصيات الإسـلامية قـوة وضعفاً من إنسـان لآخر وقـد تتفاوت بـالنسبة لنفس الشخص من وقت لآخـر. . فـالشخصيـة الإسـلامية ليست مـلاكاً ولم يـطلب الخـالق من المسلمـين أن يكـونـوا كذلك. بل أخبرهم أنـه ﴿يُحب التوابـين ويُحب المتطهـرين﴾ وأخبرهم عـلى لسان رسـوله الكـريم أن «كـل ابن آدمَ خـطاء وخـير الخـطائـين التـوابون». . وحـين يصدر من إحـدى الشخصيات الإسـلامية سلوك يتناقض مع كونها شخصية إسلامية يظن البعض أن ما صدر من أعمال قـد أخـرج تلك الشخصيـة عن الإسـلام. . والحقيقـة أن وجـود تلك الثغرات في سلوك المسلم لا يخرجه عن كونه شخصية إسلامية فقد يأتي ذلك نتيجة سهو غير مقصود أو نتيجة جهل بعدم إسـلامية تصرف مـا أو قد يأتي ذلك في لحظة ضعف أمام وسوسة النفس أو الشيطان ولكنـه مع ذلك يظل معتنقاً لعقيدته متخذاً منها أسـاسـاً لتفكـيره لذلـك فهو مـا زال شخصيـة إسلاميـة وإن عصى في عمل من الأعـمال أو انحـرف في سلوك معـين. . فـالمسلم لا يخـرج عن الإسـلام إلا إذا تـرك اعتنـاق

العقيدة الإسلامية قولاً أو عملاً.. ولا يخرج عن كونه شخصية إسلامية إلا إذا لم يجعل العقيدة الإسلامية أساساً لتفكيره وميوله.

ولذلك يمكن أن يكون الشخص مسلماً لأنه غير جاحد للعقيدة الإسلامية ولكنه مع ذلك لا يكون شخصية إسلامية، لأنه مع اعتناقه العقيدة الإسلامية لم يجعلها أساساً لتفكيره وميوله.. وذلك لأن ارتباط المفاهيم بالعقيدة هو ارتباط اجتماعي يصنعه الإنسان ففيه قابلية الانفصال وقابلية الرجوع فقد يخالف المرء أمراً من أوامر الله ولكنه بعد ذلك يدرك خطأه فيندم ويتوب إلى الله وذلك مما لا يطعن في عقيدته إنما يطعن في تقيده بهذا العمل وحده بالعقيدة.. ومن هنا كان الخطأ كل الخطأ أن نحكم على العاصي أو الفاسق بالكفر.. فلا يطعن في بياض الثوب وجود بقعة طارئة عليه. وتروي لنا كتب السيرة عن حوادث وقعت من الصحابة رضوان الله عليهم فلم تطعن تلك المخالفات في إسلامهم أو كونهم شخصيات إسلامية.. فهذا حاطب بن أبي بلتعة يرسل إلى كفار قريش خبر غزو الرسول عليه الصلاة والسلام لفتح مكة مع أن الرسول كان حريصاً على كتمان ذلك. وهذا الفضل بن العباس ينظر إلى المرأة التي كانت تكلم الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة تنم عن الشهوة فيلوي الرسول عليه الصلاة والسلام عنقَ الفضلِ بعيداً.. وها هم كبار الصحابة يفرون في حنين ويتركون رسول الله ﷺ في قلب المعركة مع قليل من أصحابه، وها هم الصحابة بعد صلح الحديبية يرفضون التقصير والحلق رغم أمر الرسول لهم بذلك.

وبذلك فإن ما يحدث من المسلم من أخطاء طارئة أو تغيرات مؤقتة في سلوكه لا تخرجه بذلك عن الإسلام ولا تغير من كونه

شخصية إسلامية؛ ولكن ذلك لا يعني إباحة مخالفة أوامر الله ونواهيه، فإن حرمة مخالفتها أمر لا شبهة فيه، ولا يعني أن الشخصية الإسلامية لها أن تخالف أوامر الله ونواهيه أو أن تتبنى أفكاراً مناهضة للإسلام أو أن تروج لأفكار الكفر بين المسلمين.. فإن اعتناق العقيدة الإسلامية يعني أن يؤمن الشخص بكل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام إجمالاً وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلاً، وإن التمرد ورفض أي جزء ثابت يقيناً يخرج الشخص ويفصله عن العقيدة فالإسلام غير قابل للتجزئة من حيث الإيمان والتقبل؛ والتنازل عن بعض الإسلام كفر؛ ومن هنا كان الاعتقاد بفصل الدين عن الحياة أو بفصله عن الدولة كفراً صريحاً، قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً﴾ [النساء/١٥٠] وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌّ في الحياة الدنيا ويومَ القيامة يُردون إلى أشدّ العذاب. وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾ [البقرة/٨٥]. وهذا ما كان من أمر أعداء الإسلام من المبشرين ومَن وراءهم وعملائهم ممن يحملون الهوية الإسلامية وينطقون باسم الإسلام وما هم من الإسلام في شيء رافعين شعارات الحضارة والتقدم والمدنية.. فقد كان ذلك هو الهدف الرئيسي للغزو التبشيري لمحو الفكر الإسلامي من أذهان المسلمين وإلغاء شخصيتهم الإسلامية المتميزة بهزيمتهم فكرياً قبل هزيمتهم عسكرياً موجهين أسلحتهم إلى قلب المفاهيم الإسلامية كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله.. ويحضرني هنا موقف رئيس وزراء إنجلترا أواخر القرن التاسع عشر والمدعو **جلادستون** حين وقف في

مجلس العموم البريطاني وبيده نسخة من القرآن الكريم وقال: [إن العقبة الكؤود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيئان، ولا بد من القضاء عليهما مهما كلفنا الأمر، أولهما هذا الكتاب؛ وأشار بيده اليسرى نحو الشرق وقال: وهذه الكعبة]، وعندما عقد مؤتمر لوزان في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ وضع كرزون رئيس الوفد الإنجليزي في المؤتمر أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي: إلغاء الخلافة إلغاءً تاماً، وطرد الخليفة خارج الحدود، ومصادرة أمواله وإعلان علمانية تركيا، رفض ذلك ممثلو تركيا وانفض المؤتمر في ٤ فبراير سنة ١٩٢٣ وأُعلن إخفاقه، ولكن عميل الاستعمار الغربي مصطفى كمال الملقب أتاتورك استطاع أن يتآمر بمساعدة الحلفاء فيلغي الخلافة ويفصل الدين عن الدولة ويطرد الخليفة عبد المجيد إلى سويسرا ويُلغي كل الوظائف الدينية وينفذ كل شروط كرزون. وعاد المؤتمر إلى الانعقاد في ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٣ وتم توقيع معاهدة لوزان في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣ واعترفت الدول باستقلال تركيا وانسحب الإنجليز من إستانبول والمضايق، وعلى أثر ذلك قام أحد النواب الإنجليز واحتج على كرزون في مجلس العموم البريطاني لاعترافه باستقلال تركيا فأجابه كرزون قائلاً: [القضية أن تركيا قضي عليها ولن تقوم لها قائمة، لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها: الخلافة والإسلام] وبهذا توّج أعداء الإسلام الحاقدون انتصارهم بالقضاء على الخلافة بواسطة عميلهم الخائن مصطفى كمال رغم أنوف المسلمين في جميع أنحاء الأرض وبذلك غاض الحكم بما أنزل الله من جميع بقاع الأرض.

وزرع الكفار عملاءهم في كل بلاد المسلمين ومنحوهم الميزات الكثيرة ومنحوهم الحماية الكافية وأسبغوا عليهم من الألقاب الرنانة ما انخدع

به كثير من المسلمين وكان آخرها على الساحة الإسلامية بعض ما يطلق عليهم لقب المفكرين الإسلاميين مروراً بالجمعيات المختلفة والحركات النسائية والمدارس التبشيرية وغيرها. .

الغزو الفكري:

ولقد بدأت فكرة الغزو التبشيري للعالم الإسلامي كرد فعل لِمَا لاقاه الأوروبيّون في الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وشدتهم وصبرهم في الجهاد؛ ومفاجأتهم بما لمسوه من تكاتف بين النصارى والمسلمين العرب الذين وقفوا جنباً إلى جنب يصدون المعتدين من الصليبيين، فالجميع كانوا يعيشون في دار الإسلام ويطبق عليهم جميعاً نظام الإسلام بعدالته التي شملت الجميع دون استثناء، فكانت فكرة الغزو التبشيري لزعزعة ثقة المسلمين بدينهم ولتشكيكهم في عقيدتهم ولبذر بذور الشقاق بينهم وبين النصارى، وبدأ التنفيذ بالفعل بإنشاء مركز كبير في مالطة في أواخر القرن السادس عشر، ثم انتقل النشاط التبشيري بعد ذلك إلى بلاد الشام سنة ١٦٢٥ م وبعد ذلك بدأت تظهر المؤسسات التبشيرية من مدارس ومراكز ودور نشر ومستوصفات وجمعيات مختلفة مثل جمعية الفنون والعلوم سنة ١٨٤٧ م، والجمعية الشرقية سنة ١٨٥٠ م. وقد بدأ الغزو التبشيري بتدبير وتمويل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا بادىء ذي بدء ثم تبعهم بعد ذلك أكثر الدول غير الإسلامية.

ونكتفي هنا بسرد مقتطفين من كتابات الغربيين لنعرف أبعاد النشاط التبشيري وندرك حقيقته، يقول الكونت هنري دي كاستري أحد علماء الفرنسيين في كتابه «الإسلام» سنة ١٨٩٦ م: [لست أدري ما

يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى، وفهموا ما كان يأتي في أغاني المسيحيين، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد، كان السبب في الحروب الصليبية. وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان. ولا يزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام. فكل منشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين].

أما الأستاذ ليوبولد ڤايس فيقول في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» [إن النهضة أو إحياء العلوم والفنون الأوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص كانت تعزى في الأكثر إلى الإتصال المادي بين الشرق والغرب، لقد استفادت أوروبا أكثر مما استفاد العالم الإسلامي ولكنها لم تعترف بهذا الجميل وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام، بل كان الأمر على العكس فإن تلك البغضاء نمت مع الزمن ثم استحالت عادة، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة «مسلم» ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوروبي رجلاً كان أو امرأة، وأغرب من هذا كله أنها ظلت حيةً بعد جميع أدوار التبدل الثقافي. ثم جاء عهد الإصلاح الديني حينما إنقسمت أوروبا شيعاً ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها، وبعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الديني فيه يخبو ولكن العداء للإسلام إستمر. . . وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ علماء الغرب يدرسون فيه الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من

العطف، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الإحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً في التفكير الأوروبي]. . . وقد عبر اللورد اللنبي عن هذا العداء الصليبي الكامن في نفوس الغربيين كلهم حين قال بعد فتح القدس سنة ١٩١٧ : [اليوم فقط إنتهت الحروب الصليبية].

وقد وضع المستعمر بنفسه مناهج التعليم والثقافة في بلاد المسلمين، سواء في مدارس التبشير أو في غيرها من المدارس، وذلك على أساس فلسفته هو وحضارته ووجهة نظره في الحياة، ثم جعل الشخصية الغربية هي الأساس الذي نتثقف عنه، كما جعل من تاريخه ونهضته مصدر معارفنا وعلومنا، حتى صار تعليم الدين الإسلامي سائراً وفق المفاهيم الغربية، وحتى نبت من المسلمين مثقفون يتكلمون ويكتبون وفق منهج الغرب وبأسلوبه ومفاهيمه، وصاروا يتعشقون الثقافة الغربية ويعتبرونها الفيصل والهدف لكل من حاول الإنتماء إلى طبقة المثقفين والمفكرين، وأصبح الفكر الغربي هو المقياس والأساس الذي يرجع إليه كل فكر ومفهوم، وصاروا هم أكثر حرصاً على تقويض دعائم الفكر الإسلامي ومفاهيمه من أعداء الإسلام من الغربيين والمستعمرين.

وبوجود المثقفين ثقافة أجنبية، وسوء فهم المثقفين ثقافة إسلامية وُجدت عند المسلمين وانتشرت بينهم المفاهيم الغربية عن الحياة، وصارت حياة المسلمين نسخة ممجوجه من حياة الغربيين، وساد بينهم الشعور بفصل الدين عن الحياة، وأن الدين لله والوطن للجميع وأن

ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وانتشرت بينهم مفاهيم الحرية الغربية والمساواة بين الرجل والمرأة بالشكل الذي يريده لهم الغربيون. . . وسادت الفوضى في المجتمع المسلم. وبعد أن تهدمت الدولة الإسلامية بدأت الأسرة الإسلامية تتهدم بالتالي جنباً إلى جنب مع تقويض دعائم الشخصية الإسلامية للمسلمين كأفراد لم يصمد معظمهم أمام تحدي التبشير الغربي وعملائه ممن يحملون الهوية الإسلامية وينتمون إلى أرض المسلمين.

إن نظام الإسلام قد حدد مفاهيم واضحة للأسرة المسلمة، وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض وعلى رأسهم الزوجين، وبين أن الإنسان ذكر وأنثى، وحدد مفهوم كل منهما، وبين حقوق كل من الذكر والأنثى وواجباته نحو الآخر ونحو الناس ونحو ربه، وكل ذلك في أحكام شرعية واضحة الدلالة والمفهوم موضوعة من قبل رب العباد خالق الذكر والأنثى. . . وقد كان العمل على هدم تلك المفاهيم الخاصة بالأسرة المسلمة وبكل من الذكر والأنثى مُرَكزاً من قبل المبشرين وأعوانهم وأذنابهم، وقد استخدموا في سبيل ذلك كل الوسائل الممكنة والمتاحة تحت شعارات التحرر والتقدم والحرية والمساواة، وسخرت لهم وسائل الإعلام والإعلان كل إمكانياتها، ونشروا مفهوم النوادي الرياضية والرياضات المختلفة، واتخذت الدعوة إلى تعرية المرأة بعد خلع الحجاب صوراً شتى، وهُوجم الطلاق وتعدد الزوجات، وانتشرت الدعوة إلى الإختلاط غير المحدود، وتم الترويج لكل ذلك تدريجياً بين العامة والخاصة، وبين طلبة وطالبات المدارس، وعقدت الندوات والمؤتمرات وأُنشئت الجمعيات النسائية تحت شعار أن المرأة نصف المجتمع وعليها أن تشارك في بنائه،

وتأصلت بين الناس الدعوة إلى أخذ كل ما في الغرب من حضارة ومدنية ودعا إلى ذلك الدعاة في كل مكان مؤكدين أن ذلك هو السبيل الوحيد للنهوض والطريق الوحيد للحضارة والتقدم.

دعاة التغريب:

وكان من أبرز مظاهر التأثر بالحضارة الغربية، حضارة فصل الدين عن الدولة، ما كتب ونشر في أواخر القرن التاسع عشر... فقد كتب رفاعه الطهطاوي في كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» عن الإختلاط بين الرجال والنساء في أوروبا بطريقة تكاد تستحسنه وتدافع عنه وذلك لتأثر الطهطاوي الشديد بالحياة الأوروبية حيث أرسله محمد علي باشا ليشرف على البعثة العلمية لتعلم الطب والهندسة والعلوم الحديثة فأقام في باريس من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٣١ وجاء للمسلمين بآراء وأفكار تظهر لأول مرة في المجتمع الإسلامي واضعاً بذلك البذور ليسقيها من يأتي بعده ويرعاها حتى تنبت شجرتها الخبيثة؛ فقد تكلم ضمن ما تكلم عن النظم الإقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات، وعن الوطن والوطنية بمفهوم الأرض المحدود، وبالمعنى القومي الأوروبي الذي يقوم على التعصب لمساحة من الأرض محدودة، وتكلم كثيراً عن المرأة وتعليم الفتيات ومنع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين. وقد عرض الطهطاوي كتابه هذا على أستاذه «جومار» قبل أن ينشره بعد عودته، وكتب بعد ذلك في عصر الخديوي اسماعيل كتابين «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين للبنات والبنين». وقد تأثر الطهطاوي في كتابه تأثراً بالغاً بفكرة الحرية في فرنسا وبجانبها الذي

يحقق للمواطنين الحماية ولكنه أغفل عن مفهومها اللاديني وعدائها الشديد للدين وأثر الصهيونية العالمية والماسونية فيها وكيف أنها تحمي وتدافع عن كل هجوم على الدين وقيمه ومفاهيمه، وكيف أنها تطلق العنان للشهوات وتخلع من عنق الدولة أي التزام ديني بالمرة.

ويتحدث الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز» عن الطلاق الذي لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحاكم بإقامة دعوى الزنى، ونفى أن يكون تبرج نسائهم واختلاط الرجال بالنساء دليلاً على التساهل في العرض أو وسيلة إلى الفساد حيث يقول: (ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم في ذلك.. غاية ما في الأمر أنهم يخطئون في تسليم القياد للنساء) ويؤكد (أن نوع اللخبطه بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسه، والتعود على محبة واحد دون غيره والإلتئام بين الزوجين) ويدافع عن مراقصة الرجال للنساء في (مجالس الرقص المسماة «الباليه Ballet») فيقول: (إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى «مروج الذهب» فهو نظير المصارعة في موازنة الأعضاء... ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقه والشلبنه لا الفسق، فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات، أما في باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً، وكل إنسان يعزم إمرأة يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا، سواء كان يعرفها أو لا) ويشيد الطهطاوي في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» بفضل الخديوي إسماعيل في التسوية بين البنات والبنين في التعليم (فقد سوى

في اكتساب المعارف بين الفريقين ولم يجعل العلم كالإرث، للذكر مثل حظ الأنثيين، فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت. . .) ويبين مزايا تعليم المرأة (يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ ايديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة) ثم هو بعد ذلك يشترط العدل في تعدد الزوجات ويورد قصصاً وأقوالاً تحبذ الإقتصار على زوجة واحدة. . . فكان الطهطاوي بذلك قد أثار فيها أثار من قضايا قضية المرأة التي أصبحت بعد ذلك مثار الجدل والمناقشة بظهور عناصر جديدة على مسرح الحوادث.

وقد نحى «خير الدين التونسي» نفس منحى الطهطاوي، فقد أقام في باريس من سنة ١٨٥٢ إلى سنة ١٨٥٦ م وألف كتابه الوحيد «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» الذي يتحدث فيه عن الحياة الأوروبية على نفس نمط الطهطاوي ويتحدث فيه عن الحرية الشخصية (وهي إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته بأبناء جنسه لدى الحكم) والحرية السياسية (حق الرعايا في التدخل وابداء الرأي في صالح الدولة عن طريق المجالس النيابية) وحرية الرأي التي يسميها حرية المطبعة ترجمة للمصطلح الأوروبي، ويفيض في بيان أثر الحرية في التقدم والرخاء ويشيد بنظام الشركات والمصارف هناك وما تحققه من مشروعات، ويبين بصراحة أن تقدم المجتمع الإسلامي لن يتيسر إلا بالأخذ من النظم الأوروبية ويرى وجوب الأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي ويقابل

بين أعضاء المجالس النيابية وأهل الحل والعقد عند المسلمين، ودعا إلى التغيير الجوهري في النظم الإجتماعية، ولكنه لم يستفض في الحديث عن تلك النواحي فيما يختص بالمرأة كما فعل الطهطاوي قبله.

وبعد احتلال الإنجليز لمصر أثيرت تلك القضايا بصورة جديدة واتخذت أبعاداً أشد إثارة، ففي سنة ١٨٩٤ م صدر كتاب «المرأة في الشرق» للمحامي النصراني مرقص فهمي الذي دعا فيه لأول مرة إلى القضاء على الحجاب الإسلامي وإباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها وإلى تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي ومنع الزواج بأكثر من واحدة ثم إلى اباحة زواج المسلمات بالأقباط.. ونظراً لكونه غير مسلم فقد إعتمد في إصدار كتابه على النفوذ البريطاني لحمايته وتأمينه، ولكن الكتاب أثار ضجة عنيفة في مصر.. غير أن الذي أثار الموضوع بشكل كبير هو صدور مؤلف لمصري مسلم يشغل وظيفة مستشار في الدولة وهو كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين سنة ١٨٩٩ م والذي أتبعه في السنة التالية بكتابه الثاني «المرأة الجديدة». وقد دعا قاسم أمين في كتابه الأول إلى نفس ما دعا إليه مرقص فهمي من قبل في كتابه «المرأة في الشرق» غير أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمة بغير المسلم.. وقد حاول قاسم أمين أن يخفي دوافعه الحقيقية في كتابه الأول وهي الافتتان بالحضارة الغربية ليبدو وكأنه يستند في آرائه إلى كتاب الله وسنة ورسوله؛ وقد إهتم الانجليز بترجمة كتاب «تحرير المرأة» واذاعته في مستعمراتهم، ولما مات قاسم أمين أوحى الانجليز إلى شيعته باقامة حفل تأبين له فأقاموا هذا الحفل وأشاروا فيه بدعوته إلى السفور مما دعا رجال الحزب الوطني إلى إقامة إحتفال كبير للدعوة إلى الحجاب ولإبراز أصابع الانجليز في فتنة السفور.. وقد

كشف قاسم أمين في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» عن حقيقة نواياه حيث دعا الناس في صدر هذا الكتاب إلى أن يتخلصوا مما وقر في نفوسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات، وأن ما سواها لا يستحق الإلتفات، وقال في آخر كتابه أن التمدن الاسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشري، وقد اختار قاسم أمين في كتابه أسوأ ما في التاريخ الاسلامي من صور الفساد ليوهم أنها أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات ويختم مقارنته بقوله (متى تقرر أن المدينة الاسلامية هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه لا بما كانت في الحقيقة عليه، وثبت أنها ناقصة من وجوه كثيرة فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أو لم يكن. وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا) وهكذا كانت حقيقة قاسم أمين في الدعوة إلى الحريةكما يراها الغرب، الحرية الشخصية التي أصبحت حقاً لكل ذكر وأنثى، الحرية التي مكنت لقاسم أمين وأمثاله حتى يومنا هذا أن يطعنوا في نظام الاسلام ومفاهيمه وأن يقولوا ما يشاؤون من مغالطات ومفاهيم تعارض الاسلام وتؤذي شعور أهله.. والطريف أن ما أورده قاسم أمين في كتبه من حجج وأفكار وأسانيد هي نفسها التي يستند اليها الذين يتناولون هذه القضايا حتى الآن ولا يجدون ما يضيفونه إليها غير عرضها بصور مختلفة وأساليب متنوعة.. فقد زعم قاسم أمين مثلاً أن قصر المرأة في بيتها وحظر مخالطتها للرجال تشريع خاص بنساء النبي، وأما نساء المسلمين عامة فمنهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط، وزعم أن الاسلام قد أباح

للمرأة أن تظهر بعض أعضائها استناداً الى جزء من آية الزينة وهو ﴿إلا ما ظهر منها﴾ متجاهلاً ما عداها من أحكام، ودلل على ضرورة اشتغال المرأة بالشؤون العامة ببعض ما في التاريخ من حالات شاذة ونادرة مع اضافة بعض التحريف والتحوير لها ليصور أن عدداً من النساء شاركن في مصالح المسلمين العامة في صدر الاسلام، وللتدليل على تحريم تعدد الزوجات جمع بين صدر الآية ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ والآية ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ متجاهلاً ما عدا ذلك من نفس الآيات ومتجاهلاً تماماً بيان الرسول عليه الصلاة والسلام للمسلمين في هذه المسألة، ويتجاهل كل أحكام الطلاق ويورد الآية ﴿وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ [النساء/ ٣٥] وذلك للدعوة الى سن قانون يمنع الطلاق الا بحكم قضائي، وهي كلها كغيرها من محاولاته ومحاولات غيره نماذج لحمل نصوص الاسلام على الوجه الذي يوافق الحضارة الغربية ومفاهيمها، ولتجاهل ما يخالف رأي الكاتب أو يعارض المفهوم الغربي من نصوص شرعية، ويسعى قاسم أمين ومن تبعه في هذا المجال الى حشد أكبر عدد من النصوص الضعيفة أو الشاذة والروايات غير الموثقة لتبدو حين تحشد مجتمعة كأنها عرف جار وأمر شائع، فيقنع بهذا التزييف والتزوير من يفتقد الحس الاسلامي الدقيق، وهذا ما وعاه كثير من المسلمين ممن عاصروا دعوة قاسم أمين، وممن يقرؤون الآن لكثير من دعاة التغريب والعلمانية من المفكرين الاسلاميين آخر موديل.. وهذا التلاعب بالأحكام الشرعية قد وصفه أحمد شوقي حين قال عن قاسم أمين: ـ

ولك البيان الجزل في أثنائه العلم الغزير
في مطلب خشن كثير في مزالقه العثور

مــا بــالــكــتــاب ولا الحــديــث إذا ذكــرتهــما نــكــير
حــتى لــنــســأل هــل تَــغــارُ عــلى الــعــقــائــد أم تُــغــير

وقد تكرر بعد ذلك هذا الأسلوب على يد الكثيرين، أسلوب يهدف الى تحريف الشريعة لافساد الأمة وذلك باختلاق القضايا وافتعال المشاكل وطرح الشعارات البراقة المخترعة ولفت الأنظار اليها وجعلها قضايا جماهيرية عن طريق وسائل الاعلام حتى يتوهم الناس أنها حيوية وأساسية مما يُوجِبُ الوصول إلى حل لها، وينتهي الأمر دائماً إلى ميوعة في الحلول، واستحداث مفاهيم لا تنتمي إلى الاسلام ويخسر المسلمون من وقتهم وانحراف مفاهيمهم شيئاً فشيئاً. . وقد شغلت قضايا المرأة المسلمين في أنحاء العالم الاسلامي المختلفة نتيجة ذلك، وزاد الأمر بعد الحرب العالمية الأولى، وسعت المرأة نحو السفور والاختلاط يدفعها الى ذلك ما كان يلقى إليها عبر الصحف والمجلات والإذاعات ومن كانوا يقفون وراءها من أعداء الاسلام سواء من الغربيين أو من أبناء البلاد الاسلامية. .

يقول شكيب أرسلان في مقال نشرته مجلة «المنار» سنة ١٩٢٥ م: [عند إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م قال أحمد رضا بك من زعماء أحرار الترك: (ما دام الرجل التركي لا يقدر أن يمشي علناً مع المرأة التركية على جسر «غلطة» وهي سافرة الوجه فلا أعد في تركيا دستوراً ولا حرية). فكانت هذه هي المرحلة الأولى. وفي هذه الأيام بلغني أن أحد مبعوثي مجلس أنقرة، الكاتب رفقي بك، الذي كان كاتباً عند جمال باشا في سورية، كتب: (انه ما دامت الفتاة التركية لا تقدر أن تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين بل ما دامت لا تعقد مقاولة مع رجل تعيش واياه كما تريد مسلماً أو غير مسلمٍ فإنني

لا أعدّ تركيا قد بلغت رقيا). فهذه هي المرحلة الثانية. فأنت ترى أن المسألة ليست منحصرة في السفور، ولا هي بمجرد حرية المرأة المسلمة في الذهاب والمجيء كيفما تشاء، بل هناك سلسلة طويلة، حلقاتها متصل بعضها ببعض، فلا بد أن ينظر الانسان اليها كلها من أولها إلى آخرها، فإذا كان ممن يرى حرية المرأة المطلقة فعليه أن يقبلها بحذافيرها، أما أن نجمع بين حرية المرأة وعدم حريتها، وأن نطلق لها الأمر تذهب حيث أرادت وتضاحك من أرادت وتغامز من أرادت، ثم اذا صبا قلبها الى رجل من غير جنسنا فذهبت وساكنته وكان بينها وبينه ما يكون بين الرجل وزوجته أقمنا القيامة ودعونا بالمسدس وقلنا: يا للحمية يا للأنفه يا للغيرة على العرض!! فهذا لا يكون وليس من العدل ولا من المنطق أن يكون. والنتيجة التي نريدها قد حصلت وهي أن سلوكنا مسلك الأوروبيين، حذو القذة بالقذة (ريش السهم) في هذه المسألة.. هذا له لوازم وتوابع لا بد أن نقبلها، ولا يبقى معها محل لكلمة (أعوذ بالله) كلا لا يوجد هناك (أعوذ بالله). بل تلك مدنية وهذه مدنية. تلك نظرية وهذه نظرية مهما استتبعت من الأمور التي كان يقال في مثلها عندنا (أعوذ بالله)].

وتستمر حلقات أعداء الاسلام في التركيز على المرأة فنجد السيدة هدى شعراوي تُدعى إلى حضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي بروما سنة ١٩٢٢ م وتعود سافرة بعده لتكوِّن الاتحاد النسائي المصري وتضع حجر الأساس له في ابريل سنة ١٩٢٤ م. وهدى شعراوي هذه هي إبنة سلطان باشا الذي كان يدعو إلى عدم مقاومة جيش الاحتلال في زحفه على القاهرة ويدعو علانية إلى تقديم المعونات والمساعدات له، بل تقدم مع عدد من أمثاله بهدية من الأسلحة الفاخرة إلى قادة

جيش الاحتلال تقديراً لهم على إنقاذ البلاد، وكان الرد أن فرض المحتل على الخديوي أن يمنح هذا الخائن عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية إعترافاً من الانجليز بالجميل.. وقد عمل الاتحاد النسائي المصري على ترديد نفس أفكار ومطالب مرقص فهمي وقاسم أمين عن الطلاق وتعدد الزوجات وحقوق المرأة المزعومة من وجهة نظرهم..

وقد استطاع الاستعمار تبني تلك الحركة ودفع عجلة الحياة فيها حتى مهد لعقد المؤتمر النسائي العربي سنة ١٩٤٤ م والذي حضرته مندوبات عن بعض البلاد العربية وطالب بالمساواة التامة بين المرأة والرجل في كل الحقوق والواجبات ومن الطريف جداً أنهن طالبن في هذا المؤتمر بحذف نون النسوة من اللغة العربية. وقد لاقى ذلك المؤتمر إستياء من الشعوب العربية، فمثلاً قدم علماء سوريا احتجاجاً رسمياً لحكومتهم على تمثيل بعض السوريات في المؤتمر، كما أرسل الملك عبد الله ملك شرق الأردن آنذاك منشوراً إلى رئيس وزارته يلفت فيه نظره إلى ذلك التمرد على الآداب والتقاليد الاسلامية والى شيوع التبرج بين النساء وخروجهن إلى الأسواق بما لا يليق، وينبه فيه الى ضرورة الالتزام بأوامر الاسلام ونواهيه بالنسبة للجنسين رجالاً ونساء؛ وقد ظهر بعد ذلك في مصر حزب ثانٍ يدعو إلى نفس المبادىء سنة ١٩٤٥ وأطلق عليه «الحزب النسائي» وتبعه بعد ذلك الحزب النسائي الثالث والذي عرف باسم «حزب بنت النيل» بزعامة المدعوة «درية شفيق» التي كانت من أوائل الطالبات اللاتي التحقن بالجامعة المصرية وبعد تخرجها درست في فرنسا للحصول على الدكتوراه عن «موقف الاسلام من المرأة»!! ومرت حياتها بعد ذلك بمراحل غامضة ومواقف متناقضة، وكانت في رحلاتها إلى الخارج تقابل هناك بحفاوة بالغة حيث كانت تردد أن أهداف حزبها هي منح المرأة حق الاقتراع وحق دخول البرلمان،

والغاء تعدد الزوجات وادخال قوانين الطلاق الأوروبية في مصر، على أن الأيام قد كشفت ما وراء هذا الحزب من أغراض خطيرة فقد حضرت زعيمة حزب بنت النيل مؤتمراً نسائياً دولياً في أثينا سنة ١٩٥١، حضرته باسم المرأة المصرية وكانت في مقدمة المؤيدات لقرار المؤتمر بالموافقة على سياسة التسليح الدفاعي رغم رفض حكومة مصر والمصريين في ذلك الوقت لأي ارتباط دولي في شؤون الدفاع، كما اشتركت بعد ذلك في مؤتمر نسائي دولي عقد في إستوكهولم وأيدت قراره بإنزال أشد العقوبات على صحفي سويدي معروف آنذاك لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهيونية في السويد، وأخيراً استطاعت أن تتجه إلى روما بصحبة المندوبة الانجليزية لحضور مؤتمر نابولي الدولي كمندوبة زائرة تسعى للحصول على العضوية الأصلية فيه، وكانت لها مواقف أظهرت ما خفي من أغراضها فقد صاحبت العضوة الاسرائيلية «تبهيلا مانمون» ونشرت لهما معاً بعض المجلات المصرية صوراً كثيرة، وقد أدلت المندوبة الاسرائيلية بتصريح للصحف الاسرائيلية والايطالية تقول فيه: (انني أهنىء نفسي بهذا الاتصال الذي ربط بيني وبين السيدة درية شفيق، وانني أعلن لعضوات المؤتمر السادس عشر في نابولي انني عقدت آمالي على الزعيمة المصرية لحل جميع المشاكل بين البلدين اسرائيل ومصر) وقد نشرت احدى صحف اسرائيل في ذلك الوقت مقالاً تتصدره صورة درية شفيق وهي تحادث مندوبة اسرائيل وجاء فيه (إن تل أبيب تتوقع أن الحوادث المقبلة ستزيد مكانة درية شفيق شأناً ورفعة). كان ذلك في سنة ١٩٥٢ م أثناء رئاسة محمد نجيب لمصر في بداية الثورة.

لقد شغلت قضية المرأة في بلد مثل مصر مساحة كبيرة من

الزمان والمكـان، فقد كـثرت مقالات الصحف المتعلقة بشؤون الأسرة المصريـة، مثـل الـطلاق، والـزواج بغـير المسلمات، والاختـلاط بـين الجنسين، والعادات الشرقية، وما يتميز به الغرب علينا، وكان الرجـل المحافظ يُصَوّر بصـورة المتزمت ضيق الأفق محـدود الثقافـة المنغلق على نفسه الذي يحرم نفسه وأهله من كل متع الـدنيا وزينتهـا، وساهمت في ذلك المسرحيات والأفلام الهزلية والرسوم الكاريكاتيريـة والفكاهـات، حتى أنهم اخـترعوا شخصيـة رجل الـدين ذو الـزي المميـز والـطريقـة الفكاهية في الحديث واللغة التي لا يفهمها كثير من النـاس؛ وأصبحت تلك الصـورة عامـلاً مشتركـاً في كثير من الأفـلام السينمائيـة، وكـانت الندوات والمقابلات تعقد مع من يطلق عليهم مشـاهير الكتـاب وكبار المفكرين من الذين يتم اختيارهم بعنايـة لخدمـة الغرض المقصـود وهو تنفير الناس من الاسلام وأحكامه الشرعية بقدر المستطاع وبطرق غايـة في الخبث والدهاء، وأصبحت حرية الكـاتب أو المتحدث تحـاط بهالـة من التقديس أيا كـان قولـه فالحـرية شيء مقـدس ومطلب حضـاري، وأصبح ما يقوله فلاسفة الغرب ومفكروه وكتابه هو المرجع لكل خلاف فكري والفيصل لكل مشكلة حضارية. . وأصبح من لا يعرف «برنارد شو» جاهلاً ومن لم يقرأ لشكسبـير متخلفاً، ومن لم يسمـع عن أوسكار وايلد ودستويفسكي وديكارت وغيرهم أعجوبة ومن لم يعرف مـوسيقى بيتهـوفن أو مـوزارت أو تشـايكـوفسكي غـير جـديـر بلقب الإنسـان المتحضر. . أمـا من يجهل اسم صحـابي جليل ومن لا يستـطيع قـراءة القـرآن الكريم وتـرتيله ومن لا يجيـد الصـلاة ومن لا يحسن التحـدث بـالعـربيـة فـلا بـأس عليـه فهي أمـور لا قيمـة لهـا في عصر التقـدم والتكنولوجيا، والله غفور رحيم ورحمته وسعت كل شيء.

الحضارة والمدنية:

لقد أصبح الخلط بين المفاهيم المختلفة شائعاً بين الناس العامي منهم والمثقف وهذا من أسباب اقبالهم على كل ما يقدم اليهم باسم الحضارة والمدنية والتقدم بغض النظر عما فيه مما يخالف الإسلام ومفاهيمه.. فهناك فرق مثلاً بين الحضارة والمدنية لا يعيه كثير من الناس ولكنه فرق يجب ملاحظته وملاحظة ما يترتب عليه من أمور.. فالحضارة تعني مجموع المفاهيم عن الحياة، بينما تعني المدنية الأشكال المادية التي تستعمل في شؤون الحياة. فتكون الحضارة خاصة حسب وجهة النظر في الحياة، بينما تكون المدنية عامة وخاصة.. فالأشكال المادية التي تنتج عن الحضارة أي تعكس وجهة النظر عن الحياة والكون والإنسان وما وراء ذلك مثل صناعة التماثيل والعري والاختلاط غير المحدود تكون صورة من صور المدنية الخاصة، أما الأشكال المدنية الناتجة عن العلم والصناعة فهي عامة لا تختص بها أمة من الأمم. والتفريق بين هذين النوعين من أنواع المدنية ضروري عند الأخذ بالمدنية، كذلك التفريق بين المدنية وبين الحضارة. وذلك أن المدنية العامة غير الإسلامية الناجمة عن العلم والصناعة لا يوجد ما يمنع من أخذها بل من الضروري السعي لأخذها والتقدم فيها وصولاً إلى ما فيه ازدياد قوة المسلمين مثل الكيمياء والفيزياء والرياضيات والصناعة والالكترونيات وما شابه ذلك، أما المدنية الخاصة أي الناجمة عن الحضارة الغربية فلا يجوز أخذها بحال من الأحوال لأنه لا يجوز أخذ الحضارة الكافرة لتناقضها مع الحضارة الاسلامية في الأساس الذي تقوم عليه وفي تصويرها للحياة الدنيا وفي معنى السعادة للانسان وغايته في الدنيا، صحيح أنه يجوز الالمام بتلك الحضارة ومعرفتها ولكن الأخذ بها غير جائز بالمره.

فالحضارة الغربية التي يتعشقها كثير من المسلمين تقوم على أساس فصل الدين عن الحياة وإنكار أثر الدين في حياة الأمم والأفراد والجماعات وبذلك نتجت فكرة فصل الدين عن الدولة وقام نظام الحياة في المجتمع الغربي على أساس المنفعة وكانت السعادة عندهم هي اعطاء الانسان أكبر قسط من المتع الجسدية وتوفير أسبابها له بحماية القانون الذي يكفل الحريات التي يضعها الأفراد وحسب مفهومهم لها، فليس لغير النفعية أي وزن، وأما الناحية الروحية فهي فردية ولا شأن للجماعة بها وهي بذلك محصورة في الكنيسة ورجال الدين هناك. ولذلك لا توجد في الحضارة الغربية قيم أخلاقية أو روحية أو إنسانية وإنما توجد قيم مادية ونفعية فقط وعلى هذا الأساس جعلت الأعمال الانسانية تابعة لمنظمات منفصلة عن الدولة كمؤسسة الصليب الأحمر والارساليات التبشيرية، وعزلت عن الحياة كل قيمة إلا القيمة المادية وهي الربح.

أما الحضارة الإسلامية فهي على النقيض من ذلك من حيث الأساس وتصويرها للحياة ومفهوم السعادة. فالحضارة الاسلامية تقوم على أساس الإيمان بالله وأنه سبحانه جعل للكون والإنسان والحياة نظاماً، وأنه أرسل رسوله محمداً ﷺ بالاسلام ديناً، فأساس الحضارة الاسلامية هو العقيدة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى. أما تصوير الحياة فهو يقوم على فلسفة مزج المادة بالروح أي جعل الأعمال مسيرة بأوامر الله ونواهيه، فالمسير لأعمال المسلم هو أوامر الله ونواهيه، والغاية من العمل هي رضوان الله تعالى وليس النفعية مطلقاً، أما القصد من القيام بنفس العمل فهو القيمة التي يراعي تحقيقها حين القيام بالعمل

وهذه القيمة قد تكون مادية كمن يتاجر بقصد الربح، أو قيمة روحية كالعبادات أو قيمة أخلاقية كالصدق والأمانة والوفاء، وقد تكون قيمة إنسانية كانقاذ غريق أو إغاثة ملهوف، فهذه القيم يراعيها الانسان حين القيام بالعمل حتى يحققها، إلا أنها ليست هي المسيرة للأعمال، وليست المثل الأعلى الذي يهدف إليه، بل هي القيمة من العمل والتي تختلف باختلاف نوع العمل..

وأما السعادة في الإسلام فهي نوال رضوان الله، وليست هي إشباع جوعات الإنسان من غرائز وحاجات عضوية، فإن إشباع هذه الجوعات وسيلة لازمة للمحافظة على ذات الإنسان ولكن لا يلزم من إشباعها السعادة.

هذا هو أساس الحضارة الإسلامية وهو يتناقض مع الحضارة الغربية تماماً، وكذلك ما نتج عنها من أشكال مدنية، فصورة امرأة عارية تبرز مفاتنها شكل مدني يتفق مع مفاهيم الحضارة الغربية عن المرأة ولذلك يعتبرها الغربي قطعة فنية قيمة كشكل مدني، ولكن هذا الشكل يتناقض مع حضارة الإسلام ويخالف مفاهيمه عن المرأة التي هي عرض يجب أن يصان، وقس على ذلك نحت التماثيل وأنواع المجون والرقص والملاهي وغير ذلك مما يتمشى مع مفهوم الحضارة الغربية ويتناقض كل التناقض مع حضارة الإسلام ولذلك يمنع الإسلام أخذها أو التشبه بها.

أما الأشكال المدنية الناتجة عن العلم وعن الصناعة كالأثاث والآلات الصناعية والطبية والأدوية والكيماويات وغير ذلك فهي أشكال مدنية عامة لا ترتبط بمفهوم حضاري خاص ولا تتعلق بأي حضارة ولذلك ليس في الإسلام ما يمنع أخذها أو التشبه بها.

القضايا المصيرية :

وفي النهاية قد يبرز تساؤل بل قد يفرض نفسه فرضاً، وهو كيف والإسلام هكذا والمسلمون مئات الملايين استطاع الكافر أن يطيح بدولتهم ويتغلغل في صفوفهم ويخرب أفكارهم ويغير مفاهيمهم ويفرض وجوده الفكري الحضاري ووجوده المادي بينهم فرضاً حتى لينبري الكثيرون منهم للدفاع عن أنظمة الكفر ومفاهيمه في كل مكان من ديار المسلمين. . والجواب على ذلك هو غياب مفهوم القضايا المصيرية عن عقل الأمة حين بدأ الكافر ضرباته للإسلام وحتى تاريخنا اليوم.

فان كل أمة في الدنيا وكل شعب على وجه الأرض تحتم عليه غريزة البقاء أن تكون له قضايا مصيرية يبذل عندها دمه عن رضا وفي منتهى الحماس ودون أدنى تردد أو جدل أو نقاش، وهذه القضايا هي المتعلقة بازهاق الروح والمحافظة عليها، أو بإزالة شعب أو أمة من الوجود، وهي قضايا تكاد تكون واحدة عند الناس جميعاً وكذلك الإجراءات المتخذة فيها كذلك لأنها تهديد للحياة بشكل مباشر محسوس.

إلا أن القضايا المتعلقة بغريزة البقاء ليست هي جميعها قضايا مصيرية، ولا القضايا المصيرية هي فقط المتعلقة بغريزة البقاء، بل هناك قضايا مصيرية أخرى متعلقة بغريزة التدين، أو بغريزة النوع. وهذه القضايا قد اختلف الناس فيها حسب وجهة نظرهم في الحياة واختلفوا في الاجراء الذي يتخذ إزاءها وذلك لأن الذي يجعلها مصيرية أو غير مصيرية هو وجهة النظر المعينة ولذلك تختلف ويختلف الاجراء.

والمسلمون أمة متميزة لهم قضاياهم المصيرية حسب وجهة نظرهم في الحياة؛ ووجهة النظر هذه يحددها الإسلام لا غير. فقد جاء الإسلام مبيناً للناس القضايا المصيرية وجعل اتخاذ إجراءات الحياة أو الموت تجاهها فرضاً لازماً؛ ولذلك فليس للمسلمين خيار في تحديد قضاياهم المصيرية أو في تحديد الإجراء تجاهها. فما اعتبره الإسلام قضية مصيرية يجب أن يكون كذلك عند كل مسلم رجلاً كان أو إمرأة.

وقد كان من البديهي أن يحصل للإسلام ما يهدد مصيره وللمسلمين ما يهدد مصيرهم كمسلمين، فالصراع بين الاسلام وبين الكفر لم يهدأ منذ بعث الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو صراع يدور على مصير الكفر ومصير الإسلام؛ ولا يعنى بالأفراد أو الجماعات إلا بوصفهم كفاراً أو مسلمين، ولذلك كان الصراع الفكري والصراع الدموي منذ قيام الدولة الإسلامية بالمدينة حتى الآن إنما هو دفاع عن القضايا المصيرية، وكان اتخاذ المسلمين إجراء الحياة أو الموت أمراً بديهياً وحتمياً. ولأمر ما كان الجهاد فرضاً من أعظم فروض الإسلام ولأمر ما كان جهاد المسلمين ماضياً إلى قيام الساعة.

ومن هذا المنطلق نجد أنه حين انطلقت شرارة الحروب الصليبية مهددة مصير المسلمين وكيانهم كأمة وكدولة إتخذ المسلمون جميعاً إزاءها إجراء الحياة أو الموت، فكان جهادهم الباسل حتى ردوا الصليبيين إلى بلادهم، وهذا عين ما فعلوه عند غزو المغول لبلاد المسلمين. هكذا كان إدراك المسلمين للقضايا المصيرية؛ لأن ما بيّنه الإسلام في شأنها كان حقائق لدى المسلمين يقبضون عليها بيد من حديد ولا يتهاونون فيها قيد أنمله.

غير أنه لما ضعف فهم الإسلام إلى حد الإنحراف، وضعفت التقوى في النفوس إلى حد السكوت عن الكفر البواح، فقدت هذه القضايا اعتبار أنها مصيرية ولم يتخذ إزاءها إجراء الحياة أو الموت، وحينئذ حصل تهديد المصير، ولم يبذل المسلمون دماءهم وأرواحهم بل وقفوا موقف المتفرج حتى أنهم دافعوا عمن سعى إلى هدم الخلافة وإلغائها وتفريق شمل المسلمين وتقطيع الدولة الاسلامية إلى أجزاء متنافرة متناحرة فهدمت الخلافة، وأزيل نظام الإسلام، وهددت الأمة الإسلامية كلها بالفناء.

والناظر في كتاب الله وسنة رسوله يمكنه أن يدرك هذه القضايا المصيرية التي حددها الإسلام وحدد الإجراءات الواجبة تجاهها بأنها إجراءات الحياة أو الموت؛ فالارتداد عن الإسلام من القضايا المصيرية سواء كان المرتد فرداً واحداً أو جماعات كثيرة العدد، وكذلك قضية زِنا الثيب والمحصن وقضايا قتل النفس، قال عليه الصلاة السلام: «من بدل دينه فاقتلوه» وقال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، وجعل الإسلام وحدة الأمة ووحدة الدولة من القضايا المصيرية ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» وكذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات/ ٩] كما جعل الإسلام ظهور الكفر البواح من القضايا المصيرية وجعل الاجراء الذي يتخذ تجاهه هو إجراء الحياة أو الموت..

ومن أهم القضايا المصيرية التي حددها الإسلام قضية الحكم بغير ما أنزل الله، ولكن ما حل بقلوب المسلمين من ضعف جعلهم يسكتون عن الحكام إذا حكموا بنظام الكفر في قضية واحدة وبتزايد ضعفهم وضعف فهمهم للإسلام سكتوا عن حكم الكفر في مسائل متعددة، فطبق القانون المدني الفرنسي في مصر سنة ١٨٨٣ م وحل محل حكم الشرع فيها، وطبق نظام الغرب في الدولة الإسلامية سنة ١٩٠٩ م ثم جاء مصطفى كمال فهدم نظام الدولة الإسلامية وأعلن حكم الكفر ونظامه بسهولة ويسر على مشهد من ملايين المسلمين وسكوتهم ورضا الكثيرين منهم بذلك.

إن الصراع بين الكفر والإسلام ماضٍ إلى قيام الساعة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وسيظل الكفار أعداء للمسلمين ما وجد في الدنيا إسلام وكفر، وهذه حقيقة لا بد أن يدركها المسلمون في كل لحظة بل ولا بد أن تتخذ مقياساً من مقاييس العلاقات بين المسلمين والكفار، إنه وإن كانت الحروب الصليبية قد انتهت، فقد بدأت قبل انتهائها حروب أخرى أشد وأعتى وأكثر عمقاً وأفظع أثراً، حروب لاقتلاع جذور الإسلام من عقول المسلمين وقلوبهم؛ حروب يستعر لهيبها في كل نواحي حياة المسلمين والمسلمات على مستوى الدول والجماعات والأسر والأفراد، حروب تسعى لمحو الإسلام من النفوس حتى لا يبقى منه سوى طقوس كهنوتية وشعائر روحية لا قيمة لها ولا أثر غير التخلف والانحطاط.

إن واقع المسلمين اليوم لا يحتاج إلى بيان أو تعليق، فهم في محنة ما بعدها محنة وبلاء ما بعده بلاء، وسيستمر بهم الحال إلى ما هو أسوأ بكثير مما هم عليه الآن ما لم يدركوا قضاياهم المصيرية، وما لم يأخذ

إدراكهم لهـذه القضايـا سبيله إلى العقول والقلوب حتى يصبـح إدراكاً إيمـانياً يقينيـاً لا يتطرق إليـه أدنى شك، فيكـون دافعاً لهم للقيـام بمـا تستوجبه القضـايا المصيرية من إجراء الحيـاة أو الموت كـما بينها الخـالق سبحـانه وتعـالى، بحماس لا ينتهي وإقـدام لا تـراجـع فيـه، فـإن الله سبحانه وتعالى لا يغير مـا بقوم حتى يغـيروا ما بـأنفسهم، وعليهم قبل ذلك أن يخلعوا عنهم ثـوب التبعية لغـير الله، وأن يكفروا بكـل ما هـو منـاقض لشريعــة الله، فإن العــزة لله جميعــاً، وإن حــزب الله هم الغالبون . .

الأستاذ الدكتور
السيد سلامة السقا
أستاذ الأمراض الباطنية والقلب
كلية الطب جامعة الإسكندرية

الاسكندريه
رمضان ١٤١٢ هـ
(مارس ١٩٩٢ م)

الأزواج . . من سنن الله في خلقه

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[يس/ ٣٦]

الأزواج . . من سنن الله في خلقه

تفرد الخالق سبحانه وتعالى بالوحدانية فهو الأحد في وجوده والأحد في صفاته وتنزه سبحانه وتعالى عن المثيل وعن الشبيه والشريك، ليس بمولود ولا والد، ليس له ضد ولا كفؤ ولا ند، فهو الأول والآخر وهو الظاهر وهو الباطن، هو المحيي وهو المميت، وهو الخالق وهو الرازق، مالك الملك وحده، عالم الغيب والشهادة وحده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لا يشرك في خلقه أحداً ولا يشرك في حكمه أحداً؛ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا يحده فكر ولا يتخيله عقل ولا يقع تحت حصر؛ خلق الزمان والمكان فلا يحده زمان ولا يحويه مكان. . حكمه واحد، ودينه واحد، وأمره واحد، فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. سبحانه وتعالى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى. . خالق كل شيء. وليس كمثله شيء. . واجب التقديس والعبادة فلا نؤمن إلا به، ولا نشرك به أحداً، ولا ندعو معه أحداً. .

﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الاخلاص].

تفرد سبحانه وتعالى بالوحدانية، وجعل الخلق أزواجاً، فخلق

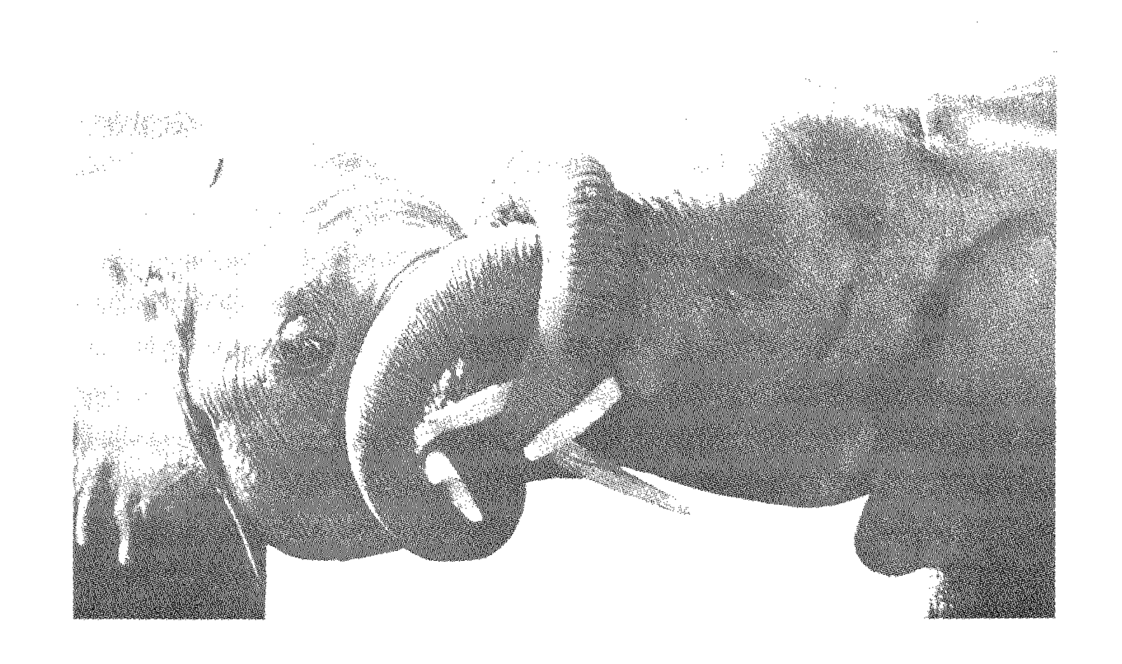
من كل شيء زوجين، وجعل من سننه سبحانه في خلقه الإزدواجية، يقول سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات/٤٩] وهي آية تفيد العموم فتؤخذ على عمومها دون تخصيص، فكل شيء خلقه الله زوجين، والآيات الأخرى التي يذكر فيها الأزواج إنما تتحدث عن أنواع من الأزواج كعينات من مخلوقات الله التي لا تدخل تحت حصر ولا يعلمها إلا الله خالقها.. ففي قوله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [يس/٣٦] نرى نوعين من الأزواج معروفين تماماً للبشر ولكن هناك الأزواج التي لا يعلمها الناس إلا بمشيئة الله تعالى. والآية تخاطب الإنسان الماضي والحاضر والمستقبل وسيظل هناك الكثير من الأزواج «مما لا يعلمون» طالما بقي الإنسان.. وسواء علينا أأدركنا ما في المخلوقات من أزواج أم لم ندرك فإن الأزواج حقيقة وآية من آيات الله وسنة من سننه في مخلوقاته وذلك بنص الكتاب القطعي الثبوت القطعي الدلالة. وتبقى مشيئة الله سبحانه لتحدد ما نكتشفه من الأزواج وما يظل في عالم الغيب.. ومن هنا يلزمنا البحث في مخلوقات الله والتدبر في خلقها لنتعرف على آية من آيات الخالق ونتدبر حكمته تعالى في سنة من سنن خلقه. خلق الأزواج.. وليكن بحثنا قاصراً على ما يمكننا إدراكه من الأزواج بين الأحياء وعلى وجه الخصوص في الإنسان.. أما الأزواج بين الجمادات فلا مجال لبحثها في هذه التأملات التي نسوقها كمقدمة لمناقشة العلاقة بين الذكر والأنثى في الإسلام. جاء في «مختار الصحاح» أن الزوج ضد الفرد، وكل منهما يسمى زوجاً، أيضاً يقال للإثنين هما زوجان وهما زوج، والزوج

البعل، والزوج أيضاً المرأة، ويقال عندي زوجا حمام يعني ذكراً وأنثى، وعندي زوجا نعل، وقال «ثمانية أزواج» وفسرها بثمانية أفراد، والتزواج والمزاوجة والإزدواج بمعنى..

وحين نستعرض آيات القرآن الكريم والتي ذكر فيها الأزواج نجد نماذج مختلفة من الأزواج شملت الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، فالزوجان يرتبطان معاً ويقترنان خلقاً وفطرة، ولذلك فهما دائماً متلازمان يحتاج كل منهما إلى وجود الآخر، والقرآن الكريم يطلق كلمة الزوج على الذكر وعلى الأنثى سواء بسواء فكلاهما زوج وهما معاً زوجان اثنان ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ [النجم / ٤٥] وكذلك ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة/ ٣٩] و﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ [هود/ ٤٠]. فالزوج عددياً تعني واحداً فقط وليس اثنين ولكنها في المفهوم تعني أن هذا الواحد له آخر ملازم له ومرتبط به فطرياً، ومشابه له تركيبياً ومكمل له وظيفياً. فوجودهما معاً ضروري وهو الأساس لاستمرار بقائهما على الأرض، فعن الإنسان يقول لنا الحق تبارك: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ [النساء/ ١] وكذلك ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف/ ١٨٩] وفي سورة الزمر: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ [الزمر / ٦] وفي سورة النحل ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ [النحل / ٧٢]، فالله سبحانه وتعالى بدأ خلق آدم عليه السلام نفساً واحدة ثم جعل من جنسها بعد ذلك زوجها فهما من أصل ترابي واحد ولهما تركيب غريزي وفطري وعضوي واحد، غرائزهما وحاجاتهما العضوية من جنس واحد، وهنا نرى

أن الحق تبارك وتعالى عبّر لنا عن آدم عليه السلام بـ «نفس واحدة» وذلك لعدم وجود النفس الأخرى عند خلق آدم عليه السلام، في حين عبّر عن النفس التالية في الخلق بـ «زوجها» وذلك لاكتمال وجود الزوجين فأصبحت النفس التالية «زوجاً» وكذلك النفس الأولى «زوجاً»، وكلمة «ثم» في آية سورة الزمر تفيد التعقيب مع وجود فاصل زمني بين خلق النفس الأولى الواحدة ثم وجود النفس التالية «زوجها» بعد ذلك.. وهكذا أطلقت كلمة «زوج» عندما كان الخطاب يعني آدم عليه السلام وقصد بها زوجته.. فهذا هو الحق تبارك وتعالى يخاطب آدم عليه السلام: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [البقرة/٣٥]، [الأعراف/١٩]، وينبهه ويحذره من الشيطان ﴿إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ [طه/١١٧] فالخطاب هنا لآدم عليه السلام أي للرجل فصار التعبير بزوجك معناه زوجتك أي الأنثى. ويشابه ذلك قول الحق تبارك وتعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ [الأنبياء/٩٠] فصار المعنى زوجته. ويلحق بذلك قوله تعالى: ﴿يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ [البقرة/١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم أحداهن قنطاراً﴾ [النساء/٢٠] وبذلك ينصرف معنى الزوج في تلك الآيات إلى الزوجة أي المرأة... ولكن عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة/٢٣٠] نجد أن المقصود هنا هو الرجل أي الذكر.. غير أن القرآن يميل إلى إطلاق لقب «البعل» على الرجل كما يتضح في أكثر المواضع ولم يستخدم لقب «الزوج» إلا في آية سورة البقرة السالف ذكرها. يقول تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً..﴾ [النساء/١٢٨] وكذلك ﴿وهذا بعلي



زوجين في عالم الفيلة.



شيخاً﴾ [هود/٧٢] وكذلك ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن...﴾.. [النور/٣١] وهكذا نجد أن القرآن الكريم أطلق كلمة الزوج وقصد بها المرأة وأطلقها وقصد بها الرجل.. فهي لفظ يعني عددياً الواحد ومفهوماً يعني واحداً له قرين ملازم له إن كان ذكراً فله زوج أنثى وإن كانت أنثى فلها زوج ذكر تجمعهما صفات الخلق والنوع والفطرة والغرائز والحاجات العضوية، وتجمعهما وظيفة واحدة لا تتم إلا بهما معاً، وهي حفظ الجنس البشري واستمرار وجوده على الأرض وخلافته لها.. ومع ذلك فهما مختلفان في أمور ومتشابهان في أمور أخرى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ كما يقول الحق تبارك وتعالى.

أما عن غير الإنسان من الأزواج فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن الأزواج من الحيوانات المختلفة فيقول مخاطباً نوح عليه السلام: ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ [المؤمنون/٢٧] و﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ [هود/٤٠] فيمتثل نوح عليه السلام لأمر ربه ويحمل معه على الفلك من كل جنس من الحيوان والطير زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى من كل نوع.. وفي سورة الزمر يقول الحق تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر/٦] وتأتي آيات سورة الأنعام لتفسر لنا تلك الأزواج الثمانية بأنها أربعة أفراد ذكور وأربعة إناث إذ يقول تعالى: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين. قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ فهذه أربعة أي ذكر من الضأن وأنثى من الضأن بالإضافة إلى مثلهما من المعز. أضف إليها ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ [الأنعام/١٤٢، ١٤٣] أي ذكر

وأنثى من الإبل ومثلهما من البقر ليصبح الجميع ثمانية أفراد أزواج أربعة أزواج ذكور وأربعة أزواج من الإناث..

وتتعدى القاعدة الإنسان والحيوان إلى النبات. فهو مخلوق من مخلوقات الله تسري عليه سنته ولا يخرج عن قوانينه.. فالنبات كله أزواج.. وتدبر معنى آيات الله في كتابه الحكيم ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ [ق/٧] و ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [الشعراء/٧] ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج/٥٥] وهي آيات تشمل كل ما تنبت الأرض من نبات من مختلف أنواع النباتات مما أحصى منه الإنسان آلاف الأنواع وما زال منها الكثير المجهول لنا حتى الآن..

﴿وأنزل من السمآء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى. كلوا وارعوا أنعامكم. إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [طه٥٣، ٥٤] فليأكل الإنسان ولتأكل الأنعام ولكن النبات لن ينتهي فهو في تكاثر دائم ووجود مستمر كنتيجة طبيعية لسنة الله في خلق النبات أزواجاً. وهي قاعدة تسري على كل ثمار الأرض ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الرعد/٣].

وفي الآخرة:

وتنتهي الحياة الدنيا.. ويأتي يوم القيامة ثم البعث و ﴿تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ [إبراهيم/٤٨] والحساب والثواب والعقاب.. فهل تتغير سنة الله أو تتبدل؟ وهل تختفي الإزدواجية في

المخلوقات أم تظل مشاهدة محسوسة؟ ذلك ما ينبئنا به القرآن الكريم من خلال وصفه للبعث والحساب في آيات كثيرة. . فها هي الجنة وها هي النار الإثنان معاً. . لا بد منهما معاً يوم القيامة. . . وها هم الناس يحشرون يوم البعث أزواجاً ويدخلون الجنة أو النار أزواجاً. . فها هو الحق تعالى يخبرنا عن حالنا يوم القيامة ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثه﴾ [الواقعة/٧] فلننظر لقسم منهم وهم الذين صدقوا الله وأنعم الله عليهم فهم في الجنة ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ [يس/٥٦] فهذا حالهم إن كانوا هم وأزواجهم مؤمنين مستحقين الجنة ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحْبَرُونْ﴾ [الزخرف/٧٠] ولكن قد يتخلف أحد الزوجين فلا يدخل الجنة ولا يشم ريحها ويزج به في جهنم فهل يبقى ساكن الجنة من الزوجين وحده!!. . إن الله سبحانه وتعالى لا يبدل سنته فهو يزوجهم بحور عين ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة/٢٣] ﴿ولهم فيها أزواج مطهرةٌ وهم فيها خالدون﴾ [البقرة/٢٥] ﴿لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا﴾ [النساء/٥٧] ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ [الطور/٢٠] و ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾ [الدخان/٥٤] فهم في نعيم دائم مع أزواجهم من الإنس أو من الحور العين حتى تتم سعادتهم ويكمل نعيمهم. .

وفي المقابل نرى الذين ظلموا أنفسهم في الدنيا بكفرهم أو نفاقهم أو صدهم عن سبيل الله ونسيانهم لربهم واتخاذهم من دونه آلهة يسمعون عقابهم الإلهي يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون﴾ [الصافات/٢٢]. فهؤلاء هم أصحاب المشأمة وهؤلاء هم أصحاب الشمال وأصحاب الجحيم هم وأزواجهم في عذاب مقيم. . ولا يذكر القرآن الأزواج في معرض بيان

عذاب المجرمين يوم القيامة إلا في تلك الآية. فالظالم سواء كان كافراً أو غير ذلك لا يرى إلا نفسه ولا يشعر إلا بحاجاته الجسدية ومتطلباته الغريزية التي لا تشبعها سعادة الآخرين ولا راحتهم. فهو أولاً ونفسه أولاً وأخيراً.

وهكذا يلقى في العذاب هو وزوجه ولكن ما يلاقيه من هول وشدة ينسيه كل من حوله ولا يخفف عنه زوج ولا ولد ولا صديق ولا ماكان يعبد من دون الله...

وفي عالم الغيب حيث الأرواح جنود مجندة تسري عليها سنة الخالق سبحانه وتعالى. فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها إختلف كما أنبأنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي صح عنه.. وعن تزاوج الأرواح يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فهي لا تشذ عن قاعدة الأزواج ولا تخرج عنها..

وعودة إلى يوم البعث والحساب ولنتدبر سورة الرحمن وما فيها من وصف للنعيم حيث تطالعنا سنة الإزدواج في آياته سبحانه وتعالى من سورة الرحمن ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ليست جنة واحدة وإنما اثنتان ﴿فيهما عينان تجريان﴾ ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ﴿ومن دونهما جنتان﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ فها هي الجنة أزواج وها هي أنهار الجنة أزواج وها هي ثمار الجنة أزواج.. الأزواج متشابهة ولكن نعيمها ومذاقها وحلاوتها مختلفة تحقيقاً لسعادة متزايدة واشباع أكبر وأكبر ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل. وأُتوا به متشابها﴾ [البقرة/٢٥] فالفائز بالجنة ونعميها يأكل الزوج من الثمار فيذوق حلاوة لم يذقها من قبل ومذاقاً لم يخطر له على بال فيستزيد من الزوج الآخر من نفس الثمار والذي يشبه سابقه فيفاجأ

بحلاوة أكبر ومذاق أطيب يفوق ما قبله درجات ودرجات وهكذا مع كل ما في الجنة من أنواع الطيبات وأوجه النعيم هكذا ينتقل المؤمنون في الجنة وأزواجهم من سعادة إلى سعادة أكبر ومن لذة إلى لذة أشمل ومن نعيم إلى نعيم أعم وأكمل. .

أزواج من العذاب:

وعلى النقيض من ذلك يصور لنا القرآن الكريم ما يلاقيه المجرمون من عذاب في صورة معبرة نتبين منها كيف أن سنة الأزواج لا تتخلف حتى في العذاب ﴿هذا وإن للطاغين لشرَّ مآب. جهنم يصلونها فبئس المهاد. هذا فليذوقوه حميم وغسّاق. وآخر من شكله أزواج﴾ [ص/٥٥، ٥٨] سبحان الله. كيف يكون العذاب أزواجاً. . لو أنه كان نوعاً واحداً لاعتاد عليه المجرم ولعرف شدته ولكنه عذاب يشبه سابقه ويماثله ولكن شدته أكبر وألمه أعظم وهوْلَه أعم وأكمل. وهكذا تتزايد شدة العذاب بصورة مستمرة لا تتوقف عند حد ولا تتكرر أنواعها جزاء للظالمين ولأزواجهم ولما كانوا يعبدون. .

ولعلنا نقف وقفة قصيرة أمام هذا المفهوم لازدواجية العذاب وازدواجية النعيم. لندرك ماله من حكمة ونستجلي بعض ما به من أوجه للاعجاز. فقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى علينا بنعمة العقل وجعله سبيلنا للعلم وكان العلم وسيلة من وسائل استجلاء سنة الله في خلقه. . فعندما درس العلماء ما للمؤثرات الخارجية الميكانيكية والكيمائية أو الحرارية والكهربائية أو الضوئية على الجسم استطاعوا أن يكشفوا النقاب عما يسمى بظاهرة التأقلم acclimatisation أو التعود إذ تقل التغيرات الحادثة داخل الجسد وبالتالي استجابة الجسد وأجهزته

وأعضائه عند تكرار ذات المؤثر وبالتالي يقل إحساس الإنسان به وتزداد قدرته على تحمل آثاره تدريجياً. أما إذا تغيرت فجأة نوعية المؤثر أثناء تكراره وبِدْء تأقلم الجسم فإن تأثيره يعود شديداً من جديد كأنه يصيب الجسم لأول مرة.. وهي ظاهرة معقدة التفاصيل لم يستطع العلماء الوصول إلى معظم أسرارها المستغلقة.. وكمثال إذا وخزت إنساناً بإبرة في مكان ما من جسده فإنه سيتألم عند أول وخزة، فإذا كررت الوخز بنفس الإبرة وبنفس القوة فإن شعوره بالألم سوف يقل تدريجياً بعد عدة وخزات وذلك نتيجة لتعود جهازه العصبي ومراكز الإحساس بالألم لديه على نوعية وشدة وتوقيت ذلك المؤثر. ولكن إذا إستمر الوخز بنفس الإبرة وبنفس القوة ثم رفعت درجة حرارة الإبرة فجأة فإن الألم المحسوس نتيجة الوخزة التالية سيعود شديداً من جديد وقد يكون أشد من أول وخزة فالإبرة هي هي وكذلك قوة الوخز وتوقيته إلا أنه حدث تغيير ما فقد أضيف عامل الحرارة كمؤثر جديد. فالألياف العصبية المستقبلة للحرارة تختلف وظيفياً ومسار الألم الناتج من الوخز والإحساس به له قوانينه المغايرة لقوانين الإحساس بالألم الناتج من المؤثرات الحرارية.. فالإبرة ظاهرها واحد ولكن تأثيرها نوعان من الألم فإذا استمر الوخز بالإبرة ثم وصِّلت بمصدر كهربائي فجأة فإنها تسبب نوعاً آخراً من الألم. وهكذا يمكن بنفس الآلة التي لا يتغير مظهرها أن نحدث أنواعاً متعددة من الألم فيصبح الإنسان في ترقب دائم لما تأتيه به تلك الوخزات من آلام جديدة ويختفي تأقلمه ويزداد توتر جسمه كله لجهله بما سيكون. ومن هنا نتبين وجهاً من وجوه اعجاز القرآن في وصف عذاب المجرمين في جهنم بأنه «من شكله أزواج» فهي أشكال من العذاب ظاهرها واحد بالنسبة للمجرم

ولكن مضمونها وتأثيرها على الجسم متباين إذ إن لكل نوع منها تأثير خاص على الجسم وجهازه العصبي مما يؤدي إلى نوع خاص من الألم يختلف عن غيره كمّا وكيفاً. فالمجرم حين يرى العذاب يحسبه ذلك الذي مرّ به قبل فيتوقع نوعاً من الألم شعر به من قبل ويتأهب جهازه العصبي وجسده كله لتحمل آثار ذلك العذاب والتي عاصرها من قبل، ولكن المفاجأة تكون مذهلة ومخيبة للظن، وإذا العذاب غير العذاب والألم غير الألم والهول أكبر وأعظم مما عرفه وتوقعه وهكذا يفاجأ كل مرة ويشتد ألمه وتزداد معاناته مع كل عذاب.

فلا يعرف للراحة طعماً ولا يجد جسده للهدوء سبيلاً فهو في خوف دائم وتوتر وترقب مستمر لما سيسفر عنه كل زوج من العذاب الجديد فهو بالنسبة له هول مجهول ومعاناة لا يدرك لها نهاية. فالعذاب أزواج متشابهة ولكن لا يطابق أحدها الآخر.. إنها لصورة مذهلة لنوع من عذاب يوم القيامة.. أننا إذا وضعنا يدنا على نار شمعة موقدة لتوقعنا أننا سنشعر بحرارتها. فما بالك إن وضع أحدنا يده فوق نار شمعة فشعر بتيار كهربائي شديد يكاد يصعقه، ثم عاد فوضع يده على ذات الشمعة فشعر كأن شفرات حادة تقطع يده، ثم عاد فوضعها مرة ثالثة ورابعة فوجد أن في كل مرة يشعر بأحاسيس مختلفة لا تكرر. إنها صورة قد لا يدركها العقل بسهولة ولكنها ليست إلا تشبيهاً مصغراً جداً جداً لما في نار جهنم من العذاب الأزواج. ولله المثل الأعلى.

وعلى النقيض من ذلك نرى حال أهل الجنة حيث ندرك ما هم فيه من نعيم متزايد فالإحساس بالسعادة وبالمذاق الحلو للطعام والشراب يعرف قوانينه ويدركها من التأقلم والتعود كذلك ولذلك كان لمن خاف مقام ربه جنتان ومن دونهما جنتان. وكانت فواكه الجنة

أزواجاً ونعيمها متشابه المظهر مختلف المخبر والتأثير كل عن غيره تمام الإختلاف ﴿وأتوا به متشابهاً﴾، وهكذا يتنقل المؤمن من سعادة إلى سعادة أكبر ومن حلاوة إلى حلاوة أعظم إلى ما شاء الله.

وشتان بين أهل الجنة وبين أهل النار..

وهكذا تبقى سنة من سنن الله سبحانه وتعالى ـ خلق الأزواج ـ في الدنيا والآخرة آية من آيات رحمته وآية من آيات عذابه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ويتقدم عمر الإنسان على الأرض ويدرك من أسرارها الكثير. ويغوص في أعماق الكون والإنسان ليدرك خلق الله، وتصادفه الإزدواجية في كل مكان، ويكتشف من الأزواج الكثير ويبقى الكثير منها غيباً إلى أن يشاء الله.. وفي كل جولة من جولاته يصادف الإنسان جديداً من المعرفة وسراً من أسرار الله في خلقه فيبهره ما يراه من عجائب صنع الله ويدرك بالمصنوع وحدانية الصانع وعظمته فيثوب الكثيرون إلى الحق نافضين عن عقولهم حجب الكفر وغشاوة الضلال وينتهي بهم الأمر إلى الإيمان بالخالق وإدراك الحق على أول طريق العقيدة الحقة مصداقاً لقوله عز وجل ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت/٥٣].

ويدرك الإنسان أن الناس أزواج؛ ذكر وأنثى، ويغوص في أعماق الجسد فيدرك الإزدواجية بمظهرها الدقيق داخل خلاياه، ويستجلي أمر النطفة فإذا هي الأخرى أزواج، ويأتيه خبر السماء بغيب يوم القيامة فيعلم أن الناس يوم القيامة أزواج، فهم في الجنة أزواج، وفي الجحيم أزواج بل إن النعيم أزواج وثمار الجنة أزواج، والعذاب

بعد ذلك أزواج حتى النفوس أزواج. . وكل شيء ـ ما عدا الخالق ـ أزواج.

فسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد الذي تفرد بالوحدانية وجعل كل شيء أزواجا، وله الحمد أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. سبحانه مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وكاشف كل غيب ومصدر كل علم ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى/١١].



﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[الذاريات/ ٤٩]

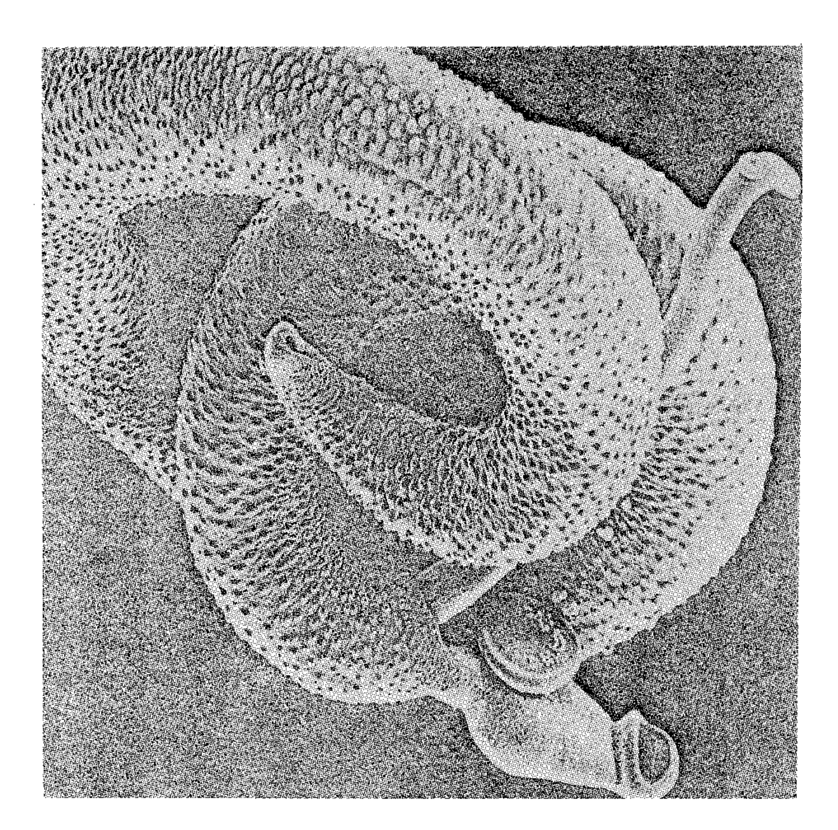
﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

استطاع الإنسان أن يكشف النقاب عن كثير من الأزواج. وان يدرك أن ظاهرة الإزدواجية شبه عامة وشاملة في كل ما استطاع اكتشافه من الأحياء..

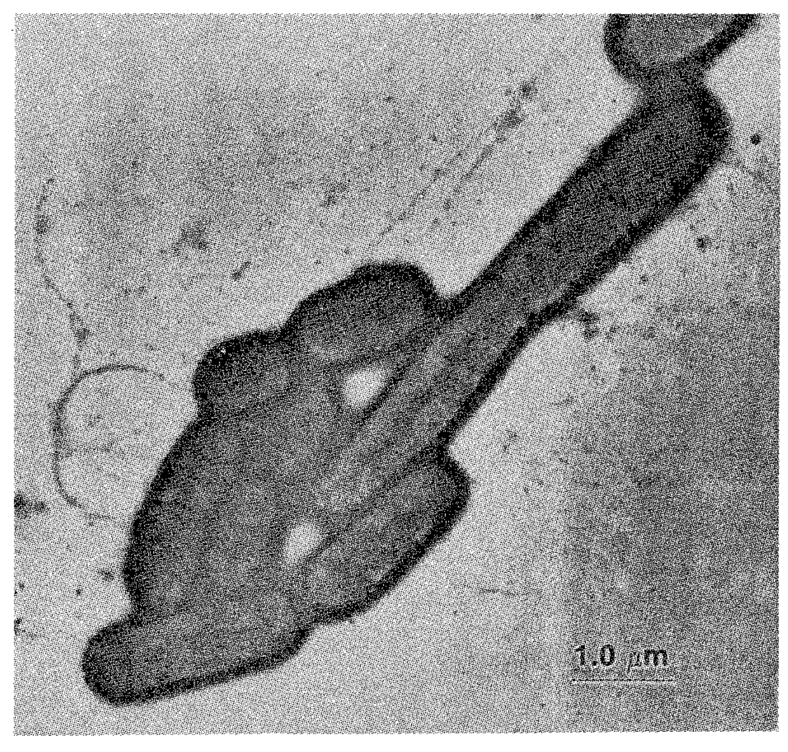
فالإنسان أزواج. والحيوان أزواج. والنبات أزواج. ويشترك الزوجان في التركيب العام للجسم ويتميز كل من الذكر والأنثى بأعضائه التناسلية الداخلية والخارجية وبعض المظاهر الخارجية كما هو الحال في الإنسان.. وقد يصعب على الإنسان العادي التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الحيوانات والطيور وكذلك في النباتات ولكن هناك اختلافات بينها يعرفها المتخصصون في دراسة تلك المخلوقات.

ورغم ظهور الإزدواجية ووضوحها في المخلوقات المعقدة التركيب فإنها ـ أي الإزدواجية ـ قد تبدو غير واضحة في بعض الأحياء العديدة الخلايا وكذلك الحال في الأحياء الوحيدة الخلية.. كأنواع من الديدان مثلاً ـ وهي مخلوقات عديدة الخلايا ـ تجتمع أعضاء الذكورة والأنوثة في نفس الكائن الحي الذي يطلق عليه في هذه الحالة لقب الخنثى Hermaphrodite الذي ليس بالذكر ولا بالأنثى ولكنه الإثنان معاً. ولكن التزاوج هنا يتم بين المكونات الذكرية والمكونات الأنوثية ويتوالد بذلك جيل جديد له نفس مواصفات سلفه.

وقد كشف الأطباء البشريون النقاب عن حالات نادرة من الناس حيث يولد الإنسان حاملاً الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية في نفس الوقت. فيولد المولود حاملاً لخصيتين ومبيضين وهي حالات نادرة جداً حيث يتم في تلك الحالة استئصال الخصيتين أو المبيضين حسبما يرى الأطباء المشرفون على متابعة حالة هذا الشخص، ويكون قرارهم بعد دراسة حالته التشريحية والجسدية والنفسية واعتبارات أخرى اجتماعية وغيرها إذ إن عملية الإستئصال تلك هي التي يتحدد على أساسها مستقبل هذا الشخص ان كان سيدرج ضمن الذكور أم ضمن الاناث بصورة نهائية لا رجعة فيها.. وتختفي ظاهرة الإزدواجية المعروفة لدينا عند متابعة الأحياء الوحيدة الخلية مثل البكتيريا والأميبيا والميراسيديوم وغيرها حيث لم يستطع العلماء اكتشاف ذكر وأنثى في تلك الأحياء.. ولذلك يعتبر كائن الأميبيا وحيد الخلية كائناً مستقلاً معبراً عن هذا الجنس من الأحياء دون وجود الزوجين من ذكر وأنثى. وهذا ما وصل إليه العلماء حتى الآن. إلا أن الأيام قد تأتي لنا بجديد يغير هذا المفهوم.. كما حدث بالنسبة للبكتيريا وذلك أنه بدراسة البكتيريا Bacteria وهي من أصغر المخلوقات وحيدة الخلية وجد أن منها أنواعاً موجودة على هيئة أزواج حيث يقترن كل اثنين معاً بصفة دائمة لا يفترقان ولذلك يطلق عليها اسم البكتيريا الكروية الثنائية Diplococcus كما توجد أنواع أخرى تتجمع أفرادها على شكل سلاسل من البكتيريا Streptococci أو عناقيد Staphylococci مما يشير إلى وجود نوع خاص من الإقتران الدائم بين أفراد تلك الكائنات التي لا يبدو لنا بينها أي اختلاف تركيبي أو وظيفي.. وقد كشف لنا التقدم الكبير في علوم هندسة الجينات وما يتصل بها من دراسات عن



أزواج من البكتيريا (أحياء وحيدة الخلية).



زوجين من البلهارسيا ـ ذكر تحتضنه الأنثى (مكبرة مئات المرات).



ظاهرة فريدة تحدث في عالم البكتيريا. حيث يحدث اقتران بين إثنتين من البكتيريا وتلتقي الإثنتان وينتقل جزء من المادة حاملة الصفات الوراثية من إحدى الخليتين (وتسمى مُعْطِيَة Donor) إلى الخلية الأخرى (وتسمى مستقبله Recipient) وبذلك تنتقل بعض الصفات الوراثية والقدرات الخاصة من خلية إلى خلية أخرى. فهو نوع من التزاوج لم يكن يعرفه أحد حتى سنوات قليلة مضت. وقد استطاع العلماء أن يكتشفوا أن مقدرة البكتيريا على مقاومة المضادات الحيوية والعقاقير المختلفة تنتقل من خلية بكتيريه إلى خلية أخرى ومن جيل إلى جيل بهذه الطريقة الفريدة للتزاوج..

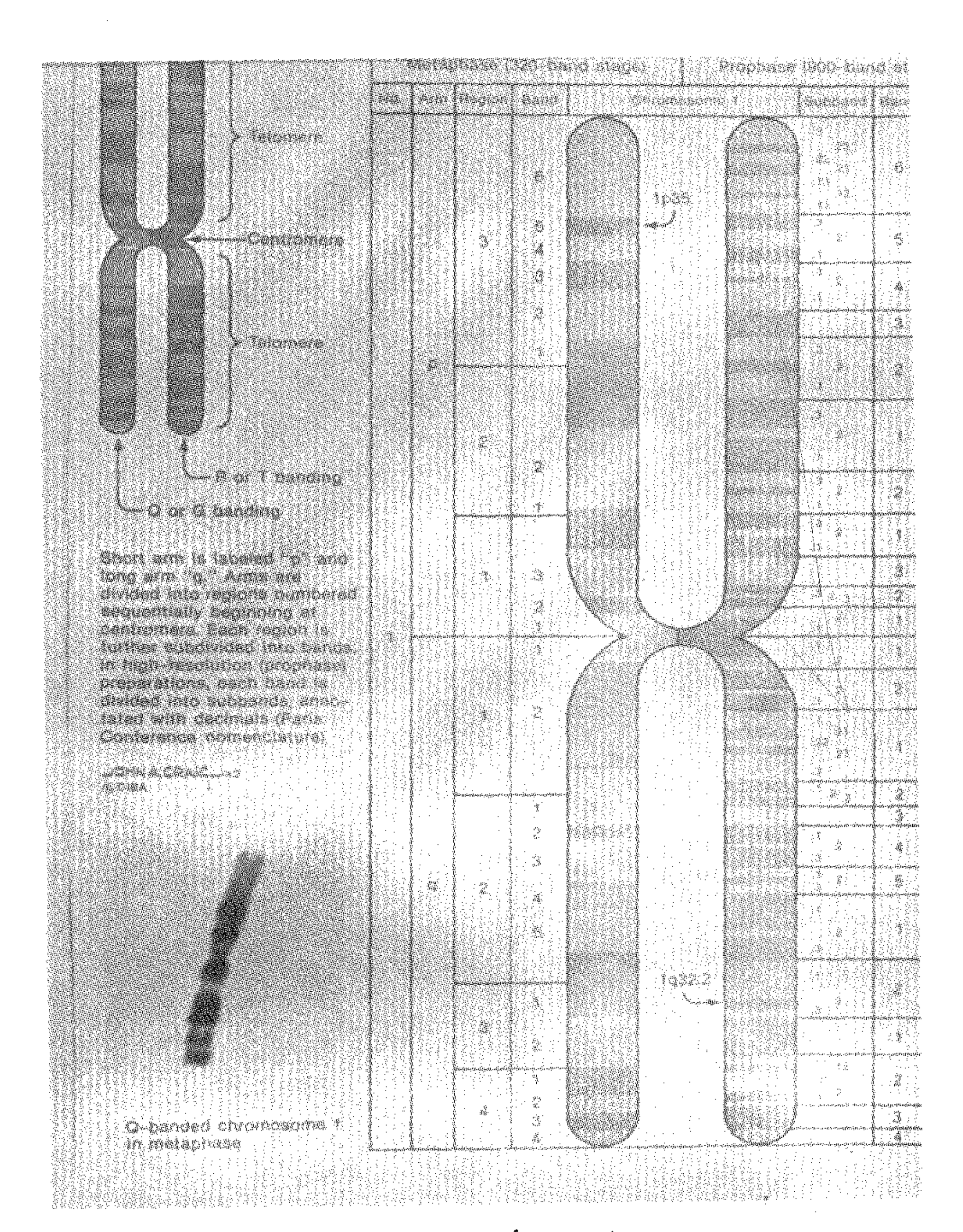
غير أن المعطيات العلمية حتى الآن لا تدل على وجود أزواج بين تلك الكائنات وحيدة الخلية بصورة معروفة ومحدّدة لنا فليس هناك ذكر وانثى يمكن التمييز بينهما. وحين تتكاثر تلك الكائنات فإنها تتكاثر بالإنقسام الذاتي حيث تنقسم الخلية إلى نصفين يحمل كل منهما نصف محتويات الخلية الأم من كل شيء بما في ذلك المادة الحاملة للصفات الوراثية ويصبح كل نصف منهما كائناً حياً جديداً حيث يبدو القول بالتزاوج غير وارد ولا يمكن الجزم بأجيال متتابعة من الأباء والأمهات والأبناء والأحفاد في تلك الكائنات.

في أعماق الخلية:

لذلك لزم البحث والإستقصاء عن وجود الأزواج أو الإزدواجية في تلك الكائنات بشكل من الأشكال، وهذا يدفعنا إلى أن نغوص في أعماقها لندرك ما هناك من آيات الله الخالق القدير وحينئذ سوف نكشف وجود الأزواج داخل المركز الحيوي للخلية المفرده أياً كانت الخلية واينما كانت.

ان أساس حياة الكائنات وحيدة الخلية، بل أساس حياة كل خلية حية ـ حرة ـ ككائن مستقل أو حرة في جسد كائن عديد الخلايا أو مرتبطة بغيرها ضمن أنسجة الجسم وأعضائه المختلفة هو وجود مادة بروتينية ذات تركيب خاص تسمى الحمض النووي DNA (اختصار للكلمات الدالة على إسمه الكيميائي Deoxy Ribo Nucleic Acid) وهي المادة الحاملة والمحددة للصفات الوراثية للكائن الحي، والمتحكمة والمحددة لصفات الكائن وأنشطته الحيوية المختلفة وقدراته المتعددة، والتي بدونها يحكم على الخلية بالموت والفناء.. والحمض النووي DNA هذا عبارة عن جزيء بروتيني عملاق بالنسبة للبروتينات الأخرى، ويتمركز داخل نواة الخلية كمركز للعمليات التي تعتمد عليها حياة الخلية وبالتالي حياة الكائن الحي.. ومن هنا كانت تسميته لوجوده عادة داخل النواة. إلا أنه في بعض الكائنات وحيدة الخلية كالبكتيريا وبعض الطحالب الملونة وكذلك أصغر الكائنات المعروفة حتى الآن وهي الفيروسات أو الحمات حيث لا توجد بها أنوية فإن الحمض النووي يوجد سابحاً في مادة الخلية غير محدد المكان.. وتحتوي جميع الكائنات الحية على حمض نووي واحد لا يختلف تركيبه من مخلوق لآخر.

والحمض النووي الأساس DNA يوجد على هيئة أجسام منفصلة بعضها عن البعض ومتجمعة داخل النواة وتعرف هذه الأجسام بالصبغيات أو الكروموسومات Chromosomes وقد يوجد الحمض النووي على شكل كروموسوم واحد أو أكثر حسب نوع الكائن الحي. فكثير من الكائنات وحيدة الخلية تحتوي على الحمض النووي مكوناً من صبغياً واحداً، إلا أن خلايا الكائنات العديدة الخلايا



الصبغي أو (الكروموسوم)

يـوجد منـه في كل خليـة بشرية ستـة وأربعون فـرد ما عـدا الحيوانـات المنويـة والبـويضات والصـورة تبينّ إحـدى طرق صبـغ تلك الأجسـام لبيـان مـواقـع الجينات (حاملات الصبغات الوراثية) عليها.



تحتوي على أعداد أكبر من الصبغيات. . وعدد الصبغيات داخل الخلية يميز كل كائن حي عن غيره، وكذلك فإن عدد الصبغيات الموجود في خلية كائن حي هو عدد ثابت لا يتغير من خلية إلى أخرى. فخلايا الإنسان مثلاً تحتوي نواتها على ٤٦ صبغياً، وهذا العدد ثابت لا يتغير منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كسنة من سنن الله في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب/٦٢]. فكل انسان على الأرض تحمل كل خلية من خلايا جسمه ستة وأربعين صبغياً تمثل المادة النووية لكل خلية (باستثناء الحيوانات المنوية والبويضات والتي يحمل كل منها نصف هذا العدد أي ثلاثة وعشرين صبغياً فقط). .

وباستعراض واقع الصبغيات وواقع الحمض النووي وهي الدعائم التي ترتكز عليها حياة الكائنات الحية وأنشطتها وتكاثرها فإن ظاهرة الأزواج ستبدو لنا واضحة سواء في الصبغيات أو في وحدتها البنائية أي الحمض النووي DNA.

أزواج وأزواج:

حين استطاع الإنسان إكتشاف الصبغيات (الكروموسومات) وجد أن نواة الخلية البشرية تحتوي على ستة وأربعين صبغياً يتشابه كل اثنين منها تشابهاً تاماً. ولا يمكن التفرقة بينهما لذلك حين تم تصنيف صبغيات الخلية البشرية فقد صنفت في ٢٣ مجموعة كل مجموعة منها عبارة عن زوجين اثنين من الصبغيات، وكل زوجين اثنين لهما نفس المظهر والشكل وعند صبغهما بصبغيات خاصة لإظهار المناطق الحاملة للصفات الوراثية على كل منهما فإن التطابق بينهما يصبح

واضحاً جلياً. . وهذا التزاوج يشمل جميع الصبغيات عدا صبغياً منفرداً يبدو مختلفاً عن الآخرين وليس له شبيه بين باقي الصبغيات وذلك الصبغى المفرد يوجد فقط في خلايا الذكور ولا يوجد في خلايا الاناث التي تحتوي بذلك على ثلاثة وعشرين من الأزواج التي يتشابه كل زوجين اثنين منها تماماً بينما نجد في خلية الذكر اثنين وعشرين من الأزواج ويبقى صبغيان اثنان أحدهما يمثل الذكورة ويميزها ويطلق عليه لقب الصبغى «Y» تمييزاً له عن رفيقه الآخر والذي يرمز له بالصبغى «X». وبذلك تحتوي خلية الأنثى على ٤٦ صبغياً بينها اثنان «X» بينما تحتوي خلية الذكر على ٤٦ صبغياً بينها واحد X فقط وواحد Y فقط وبذلك تأخذ ظاهرة الإزدواج مظهراً خاصاً في مجتمع الصبغيات في خلايا الجسد البشري أي في كل خلية من خلايا أجساد الناس في كل مكان وزمان. .

وعند انقسام الخلايا الخاصة بإنتاج الحيوانات المنوية داخل الخصية وكذلك الخلايا الخاصة بإنتاج البويضات داخل المبيض فيما يسمى بالإنقسام الإختزالي (Miosis) فإن كل خلية تنقسم إلى خليتين ويتوجه زوج من كل زوجين اثنين من الصبغيات إلى احدى الخليتين وبذلك تصبح كل خلية جديدة (حيوان منوي أو بويضه) محتوية على ثلاثة وعشرين صبغياً فقط. . وحينما يلتقي الذكر بالأنثى وتنطلق الحيوانات المنوية لتلقيم البويضة وينجح أحدها في ذلك فإن صبغيات الحيوان المنوي (وعددها ٢٣) تمتزج بصبغيات البويضة (وعددها ٢٣ كذلك) لتكون أزواجاً جديدة حيث يلتقي كل زوج من صبغيات الحيوان المنوي بزوجه من صبغيات البويضة لتكتمل الأزواج وتستمر الأزواج هكذا إلى نهاية حياة ذلك المخلوق الجديد. . فالصبغي يبحث

جاهداً عن قرينه ليلتقي به في تزاوج عجيب. . أما باقي الحيوانات المنوية التي تفشل في تلقيح البويضة أو في الوصول إليها أصلاً فإن مآلها الموت الحتمي.

وباستعراض واقع الصبغي أي بدراسة تركيب كل صبغي على حده، فإن المشاهد المعروف أنه يتكون من نصفين متطابقين من حيث الشكل والتركيب وما يحملان من حاملات الصفات الوراثية أو الجينات ويرتبط كل نصف بنصفه الآخر بصفة دائمة ولا ينفصلان إلا عند انقسام الخلية انقساماً غير اختزالي أي غير ذلك الإنقسام الخاص بالحيوانات المنوية والبويضات وانما هو ذلك الإنقسام الدائم الحدوث في خلايا الجسم لتعويض ما يفقد منها نتيجة الأمراض والجروح والصدمات وكذلك الإنقسام الخاص بمراحل النمو المختلفة للجسم وكذلك الخاص بتكوين خلايا الدم وغير ذلك مما يحدث بصورة دائمة حيث تنقسم الخلية إلى خليتين متماثلتين يحمل كل منهما ٤٦ نصفاً من الصبغيات إذ إن كل صبغي ينقسم إلى نصفين يذهب كل نصف إلى احدى الخليتين الجديدتين. وبسرعة يقوم ذلك النصف من الصبغي باستعاضة نصفه الآخر أو بمعنى أدق اعادة تركيبه وتجميعه من مادة الخلية ليعود صبغياً كاملاً من نصفين أو زوجين بمعنى آخر مرتبطين ومقترنين لا ينفصل أحدهما عن الآخر ويصبح عدد صبغيات الخليتين الجديدتين ٤٦ صبغياً كاملاً كما هو الحال في باقي الخلايا. .

وواقع الحال أن الصبغي يتكون من ذلك الحمض النووي DNA السابق الإشارة إليه. ذلك الحمض الذي يكشف تركيبه الكيميائي والبيولوجي عن ظاهرة الإزدواج والتزاوج في أدق صورها وأعمقها. تلك الظاهرة التي شاء الله سبحانه أن يكشف النقاب عنها

للعلماء مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين..

وقد كان لإكتشاف تركيب الحمض النووي DNA صدى كبيرٌ في الأوساط العلمية واستحق مكتشفوه جائزة نوبل للطب تقديراً لذلك الإنجاز الضخم الذي يعتبر احدى العلامات الرئيسية على طريق علوم الحياة عامه والطب على وجه الخصوص..

إن الحمض النووي DNA من البروتينات العملاقة، وأساس بنائة عبارة عن جزيئات صغيرة تسمى القواعد النووية Nucleobases فهذه القواعد بمثابة اللبنات الأساسية في بناء جزئي الحمض النووي العملاق. وهناك من القواعد النووية الكثير ولكن أربعة منها فقط هي التي تدخل في بناء جزئي الحمض النووي DNA وهذه القواعد يطلق عليها ألقاب «الأدينين» ويرمز له بالحرف A ثم «الجوانين» ويرمز له بالحرف G ثم «الثايمين» ويرمز له بالحرف T ثم «السايتوزين» ويرمز له بالحرف C.. وتتجمع مئات الآلاف من هذه اللبنات الأربعة لتترابط فيما بينها على شكل سلسلة طويلة وتتجمع مئات آلاف أخرى لتكوين سلسلة ثانية وتتزاوج السلسلتان فيما بينهما وتقترنان بروابط من الفوسفات والسكر وتلتف السلسلتان حول بعضهما كالسلم الحلزوني. ويتم الترابط بين السلسلتين بطريقة خاصة ثابتة لا تتغير ولا تختلف في أي خلية على وجه الأرض سواء خلايا الإنسان أو الحيوان أو النبات.. فالقاعدة النووية أدينين (A) تتزاوج مع القاعدة النووية ثايمين (T) أي (A - T) وتتزاوج القاعدة سايتوزين (C) مع القاعدة جوانين (G) أي (G - C) وهو نمط للتزاوج في كل أحياء الأرض.. فهذا التركيب المزدوج للحمض ترتيب ثابت ودائم.

ويمثل ترتيب القواعد النووية على كل سلسلة من سلسلتي

الحمض النـووي DNA شفرة خـاصة مثـل شفرة التلغـراف أو شفـره الكمبيـوتر حيث يمثـل ترتيب كـل مجموعـة وعددهـا أمراً خـاصاً يـوجـه معامل الخلية لإنتاج بروتين أو أنـزيم خاصٍ . . فـإذا احتاج الجسم إلى نوع معين من البروتينات وليكن «س» مثـلاً فإن الجـزء الحامـل للشفره الخـاصة بتصنيعـه ينفصل من احـدى سلسلتي الحمض النووي DNA ويتجه خارج النواة إلى «سيتوبلازم» الخلية حيث الجهاز الخاص بتصنيـع البروتينات (يسمى الريبوسوم Ribosome) ليعطيه الأمر فيبـدأ فوراً في تجميع الأحماض الأمينية من مادة الخليـة لتصنيع جزيئات من الـبروتين «س» حسب الشفره الموجودة. . أما الجـزء المفقود من سلسلة الحمض النووي DNA فإنه يستعاض فوراً بتجميع قواعد نووية جديدة حسب القـاعـدة السـابق ذكـرهـا (أي A - T و C - G) فكـل منهـما زوجـان متلازمان لا يتغيران ولا يختلف أحدهما عن الآخر. وينجـذب احدهمـا إلى الآخر دون غيره بقوة فطرية فيه.

وهكذا ان ظهر لنـا أن الأزواج تعني الذكـر والأنثى من الناس، فإن التدقيق والتمحيص والتغلغل إلى أعماق الجسد البشري يرينا كيف أن المكونات الأساسية لحيـاة الخلايـا ولإستمرار الجنس البشري عبـارة عن أزواج. . فـالصبغـيـات أزواج. . وأنصـاف أزواج. والحـمض النـووي DNA المكون الأسـاسي للصبغيات انمـا هو أزواج. . بـل أن اللبنـات المكونـة لأزواج الحمض النووي وهي القـواعـد النـوويـة هي كذلك أزواج.

فالأدينين والثايمين زوجان وكذلك السايتوزين والجوانـين زوجان فهي مركبات كيميائية ذات تركيب خاص ولهـا بالتـالي صفات وقـدرات

فطرية خاصة تجعل بين كل اثنين منها علاقة ارتباط واقتران قوية فيكوّنان زوجين متلازمين داخل ذلك التجمع الكبير لأمثالها والمسمى بالحمض النووي DNA ويرتبط كل زوج بزوجه ويقترن به ويبحث عنه إن فقد أو انفصل عنه بل قد يقوم بتركيبه من مادة الخلية حتى يظل التزاوج بينهما مصداقاً لقوله تعالى ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين﴾.

والواقع أن كل زوجين اثنين يشتركان في الشكل ومكونات بنائهما إلا أنه يوجد دائماً بعض الإختلاف في نمط البناء.. فكما يختلف الذكر عن الأنثى جسدياً في بعض الأمور الخاصة بوظيفة كل منهما كذكر أو كأنثى نجدهما يشتركان في باقي التركيب الجسدي والوظائف الحيوية المختلفة.. وكذلك نجد أن الزوجين من سلاسل الحمض النووي DNA تشتركان في مكونات البناء من القواعد النووية إلا أنهما تختلفان في ترتيب تلك القواعد فحين يوجد الأدينين في سلسلة يوجد الثايمين في المقابل وحين يوجد السايتوزين في سلسلة يوجد الجوانين في السلسلة الأخرى. فكل زوج يقابله زوجه ويقترن به وبذلك يختلف ترتيب القواعد النووية في كل من السلسلتين المتزاوجتين. وهذا الإختلاف هو الذي يوجد قوة التجاذب بين الزوجين من السلاسل وهو أساس قوة الترابط بينهما، وهو نفسه السر في ما يحدث بعد انقسام الخلايا حين تنقسم الأزواج وتنفصل عن بعضها إلى خلية جديدة فيسرع كل زوج في إنتاج زوجه الآخر وجذبه نحوه من بين مكونات الخلية الجديدة ليعود كل زوجين اثنين كما شاء الله. وصدق الخالق سبحانه وتعالى ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

وباستعراض واقع الإنسان من هذا المنطلق بدءاً بالحيوان المنوي

والبويضة ومروراً بحياة الأجنة داخل الأرحام ثم الإنسان بعد ولادته وحتى مماته فإن ظاهرة الإزدواج، الذكر والأنثى، ستبقى ملازمة له من البداية حتى النهاية، فالنطفة أزواج، والأجنة أزواج، والناس أزواج وهذا ما سنحاول تبيانه بإذن الله . . .



الذكر والأنثى

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾

[القيامة/ ٣٧، ٣٩]



الذكر والأنثى

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾
[فاطر/ ١١]

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾
[النجم/ ٤٥]

يبين لنا الخالق سبحانه وتعالى في تلك الآيات بعض سننه في خلق الانسان بدءاً بالتراب واستمراراً من نطفة، وجعله أزواجاً.. خلق آدم عليه السلام من تراب. وشاء الخالق أن يجعل له زوجاً فكان الانسان زوجين. وصار استمرار النسل والوجود الانساني على الأرض من نطفة وصار تحديد الجنس ـ ذكراً أو أنثى ـ من نطفة تمنى أي من مني الذكر وهذه النطفة من المني هي الحيوان المنوي الذي يحمل الأوامر الشفرة المحددة للجنس.. فعند التقاء الذكر والأنثى يقذف الذكر إليها بأكثر من مائة مليون حيوان منوي متشابهة المظهر والتركيب ولكنها نوعان مختلفان اختلافاً كبيراً. فهما زوجان يبحث أحدهما عن الآخر في رحلة الحياة والبقاء.

يولد الحيوان المنوي داخل الخصيه بانقسام الخلايا الأم التي تحددت وظيفتها بأنتاج الحيوانات المنوية.. وهذه الخلايا الأم تحمل

داخل أنويتها ـ كأي خلية أخرى في جسم الإنسان الذكر ـ ثلاثة وعشرين زوجاً من الصبغيات يتشابه كل زوجين منها ما عدا زوجين يمثلهما الحرفان « Y » و« X ». ولذلك فعند أنقسام الخلية الأم إختزاليا لإنتاج الحيوانات المنوية فأنها تنقسم إلى حيوانين منويين يحمل كل منهما نصف عدد الصبغيات أي ثلاثة وعشرين صبغياً فقط. وهي تعني زوجاً من كل زوجين إثنين من الصبغيات. وبذلك نجد أن نصف عدد الحيوانات المنوية يحتوي على الصبغي « Y » ويحتوي النصف الآخر على الصبغي « X ». ويتحدد كون الجنين ذكراً أو أنثى بناءً على نجاح أي نوع من هذين النوعين في الوصول إلى البويضة وتلقيحها.

أما البويضات فإن الخلية الأم داخل المبيض والتي تنقسم داخل المبيض لإنتاج البويضات لا تحمل داخلها صبغى « Y » وإنما تحمل زوجين إثنين من الصبغى « X » كأي خلية أخرى من خلايا جسم الإناث، ولذلك فعند إنقسام الخلية الأم فإن البويضات الناتجة لن تحمل سوى صبغى « X » دائماً..

وتنطلق الحيوانات المنوية المقذوفة داخل مهبل الأنثى وحول عنق الرحم عند الجماع في رحلة عجيبة يموت خلالها الملايين من تلك المخلوقات الحية.. وذلك أن الحيوانات المنوية تنطلق بسرعة تفوق نسبياً سرعة أي عداء عالمي معروف متخطية عقبات ومعوقات كثيرة. فهي تسبح مارة خلال عنق الرحم بما فيه من إفرازات لزجة سميكة مقاومة للحركة لتصل إلى الرحم فتنطلق بين أهداب خلايا غشائه المبطن لجداره وتمر خلال ما بهذا الجدار من أخاديد متشابكة. وأخيراً ينجح في الوصول إلى قناة فالوب الموصلة بين الرحم والمبيض بضع

صور مختلفة للحيوانات المنوية.
والصورة السفلى رسم تخطيطي مكبر لحيوان منوي لبيان تركيبه.

Head
Neck
Middle piece
Proximal part of tail
Distal and end part of tail
Mature spermatozoon
Nucleus
Post-acrosomal envelope
Cell membrane
Vacuoles
Mitochondria
9 peripheral fibrils
9 double fibrils
Fibril sheath
2 central fibrils
.crosome

آلاف فقط من تلك الحيوانات المنوية. . وتمر تلك الآلاف القليلةداخل قناة فالـوب فيها يشبـه الغابـة المتشابكـة الأشجار والأغصـان وذلك لما للخلايا هناك من أهداب كثيفة طويلة. . ويصل في النهاية بضـع مئات فقط من تلك الحيوانات إلى نهاية الرحلة حيث تقبع البويضـة في مكان ما من قناة فالوب محاطة بـالعديـد من الخلايـا على شكـل هالـة حولها كعـروس تنتظر زفـافهـا إلى ذلـك الفـارس المجهـول الـذي ينجـح في الوصول إليها بعد تلك الرحلة الشاقـة المهلكة. . وتقـترب الحيوانـات المنوية الباقية من البويضة وتدور حولها كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس، وأخيراً يفلح واحد منها في أختراق حاجـز الخـلايـا المحيـطة بالبويضة ثم يخترق جـدار البويضـة، وهنا فقط تقف بـاقي الحيوانـات المنـوية عنـد حدهـا لا تتعداه فقـد أغلق طريق الـدخول إلى البـويضة تماماً. وتم التزاوج والتحم الزوجـان وليس هناك مـوضع لآخـر فتعدد الأزواج ممنوع. .

ويقتحم الحيوان المنوي جدار البويضـة تاركـاً ذيله خارجهـا فلم تعد إليه حاجة. ويقترب رأس الحيوان المنوي المخترق للبويضة والـذي يحتوي على الصبغيات من نواة البويضة لتلتقي الأزواج من الصبغيـات كـل زوج بقرينـه فيلتئم الشمل وتبـدأ خلية جـديدة تسمى الـزيجـوت كاملة الصبغيات ذات إمكانيات هائلة للإنقسـام مرات ومـرات ومئات وملايين المرات لتصبح خـلال تسعة أشهـر قمريـة خلقاً آخـر وإنسانـاً جديداً يضاف إلى البشر ويمتد من خلاله الوجود الإنساني على الأرض.

والحيوان المنوي الذي ينجح في رحلته ويقوم بتلقيح البويضة قد يكون حاملاً للصبغي « X ».

وفي هذه الحالة تصبح البويضة بعد تلقيحها أي الزيجوت حـاملة

لزوجين « X X » من الصبغيات وبالتالي تصبح خلايا الجنين المتكون بعد ذلك حاملة هذين الصبغيين ويكون الجنين أنثى بأذن الله . .

أما إن كان الحيوان المنوي المُلَقِّحْ حاملاً للصبغي « Y » فأن الزيجوت سيحمل الزوجين « X Y» (حيث الصبغي X من البويضة والصبغي «Y» من الحيوان المنوي) ويكون الجنين ذكراً باذن الله . . .

فالصبغي Y القادم من الذكر هو المحدد للذكورة وفي غيابه يكون الجنين أنثى . . وبذلك يكون تحديد الذكر والأنثى آت من الحيوانات المنوية التي تنتمي للذكر. ومن هنا يتضح وجه من وجوه الاعجاز في الآية الكريمة ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى﴾ [النجم/ ٤٥] وغيرها مما يشير إلى تلك السنة من سنن الخالق عز وجل. . كما يتبين لنا نوع من أنواع قوامة الرجل على المرأة أو تفضيل الخالق سبحانه وتعالى للرجل على المرأة. . فقد خلقه الله سبحانه وتعالى قبلها، ثم جعل في خلقه العامل المحدد لنوعية جنس النسل ذكراً يكون أو أنثى بإذن الله . . .

ويحاول الإنسان جاهداً أن يجد إجابات لتساؤلات عديدة تحيره، ولأمور تبدو معجزة رغم تكرارها كل يوم ملايين المرات. .

كيف يتحدد ذلك الحيوان المنوي الذي يصل إلى البويضة ويلقحها؟! كيف تعرف تلك الملايين من الحيوانات المنوية طريقها في ظلام الرحم ومجاهله ومسالكه الصعبة ودروبه المتشعبة وما الذي يهديها إلى مكان البويضة؟

وكيف تنجذب إليها؟ . . وكيف يتم إختراق البويضة؟ ولماذا تقف باقي الحيوانات فجأة عندما يخترق أحدها البويضة؟! . . هل

ترى؟ هل تسمع؟ هل تشعر؟ كيف يتم التوازن بين الحيوانـات المنويـة الملقحة للبويضات في كل مكان وزمان على الأرض ليظل التوازن قائـماً بـين أعداد الـذكور وأعـداد الإناث عـلى مـر الأزمنـة والعصـور؟!.. وغيرها وغيرها ممـا ليس له عنـدنا إلا إجـابه واحـدة ﴿قل الله خـالق كل شيء﴾.. ويحملنا الفكر والتفكر إلى آفاق إيمانية بالخالق الكامل المـدبر الـواحد الأحـد الذي لا يخفى عليـه شيء في الأرض ولا في السـماء.. وإلى مـا توحي إليـه كلماته عـز وجـل ﴿لله مُلك السـماوات والأرض، يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكـرانـاً وأنـاثـاً، ويجعـل من يشـاء عقيـماً، إنـه عليم قـديـر﴾ [الشورى/ ٤٩، ٥٠].

والزوجان ـ الحيوان المنوي والبـويضة ـ خلق كـل منهما لـلآخر، فلا حياة لأحدهما بدون زوجه الثاني. فإذا التقيا استمرت الحيـاة، واذا لم يلتقيا مات كل منهما ولم تمتد حياته.. ورغم ذلك فهما مختلفان مظهراً ومخبراً ونشاطاً. فالبويضة تخرج من المبيض لتتلقاها فتحة قناة فالـوب وتتحرك داخل القنـاة ببطء شديـد وذلك نتيجـة تقلصات جـدار القناة تقلصات دودية مع حركة أهداب الخلايا المبطنة للقناة مما يدفع البويضة تجاه الرحم لتستقر في الثلث الأخير من القناة إنتظاراً للزوج المرتقب.. وتحيط بالبويضة طوال الـرحلة وأثناء فـترة الانتظار مجمـوعة من خـلايا المبيض تنفصـل معها عنـد انطلاقهـا من المبيض.. وإذا تأخـر وصول الحيوان المنوي لبضعة أيام أو أسبـوع فإن البـويضة يصـير مآلهـا الموت ويتكرر إنتاج بويضة واحدة كل شهر بين المبيضـين بالتنـاوب في معظم الأحيـان. وإذا تم إستئصال أحـد المبيضين فـان المبيض البـاقي يقـوم بإنتاج البويضة المطلوبة كل شهر.. والبـويضة في حـالة هـدوء وانتظار

ليسكن إليهـا زوجها السـاعي الكادح بعـد رحلة عـذاب طـويلة يجد بعدها السكن والحب والسكينة عند نصفه الثاني «البويضة».

أمـا الحيوان المنـوي فله شكل متميـز عن كل خـلايـا الجسم. . فالجسم ينتج الحيوانات المنوية لتفارقه وذلك لأن وظيفتها خارج الجسم ولا تقـوم تلك الحيوانـات بأي وظيفـة داخـل الجسم. ولـذلـك نـرى الخصية تنتج الحيـوانات المنـوية بصفـة مستمرة ليـل نهار وتتجمع تلك الحيوانات في القنـوات المنويـة داخل الخصيـة انتظاراً لانـطلاقها أثنـاء الجماع فان تـأخر ذلـك بضعة أيـام ماتت تلك الحيـوانات وحـل محلها غيرها، فالانتاج مستمر ولا يقف بدءاً من سن البلوغ وانتهـاء بالموت. إذ ليس هناك سن لليأس عند الذكور ومقدرتهم على الانجاب مستمـرة طوال عمرهم. . نوع آخر من قوامة الذكور على النساء وممـا فضل الله بـه بعضهم عـلى بعض. . ويــتركب جسم الحيـوان المنــوي من رأس بيضاوي يحتوي على الصبغيات الحاملة للأوامر الموروثـة، ويلي الـرأس جزء قصير يحتوي على معامل إنتاج الطاقة اللازمة لحياة الحيـوان المنوي ونشـاطه، وينتهى ذلـك الجـزء إلى ذيـل سـوطي طـويـل هـو المحـرك الأسـاسي الذي تؤدي حـركاتـه السوطيـة السريعة المتكـررة إلى إنـدفـاع الحيوان المنوي في كل الإتجاهات بالقـوة المطلوبـة وهذا الـذيل ينفصـل من جسم الحيـوان المنوي عنـد تلقيح البـويضـة ولا يتعـدى جـدارهـا الخارجي.

والبـويضة تكـبر الحيوان المنـوي حجـماً عشرات المـرات. . وفي الطيور والـزواحف مثلاً نجـد أن البويضـة تحتوي عـلى المادة الغـذائية اللازمة لنمو الجنين حتى اكتـمال خلقه فهي بمثـابة الـرحم للجنين لخلو تلك المخلوقـات من الأرحام. ولـذلك تحـاط البويضـة بطبقـة كلسيـة

وتخرج إلى خارج الجسم بيضة كاملة النمو كبيرة الحجم لتحضنها الأم حتى تفقس أخيراً عن حيوان جديد. . وقد يصل حجم بيوض الطيور إلى حجم الكرة المتوسطة مثل بيوض النعام. وهذه البيضة الضخمة يلقحها بعد تكوينها داخل جسم الطائر حيوان منوي واحد لا يمكن رؤيته بالعين المجردة لصغر حجمه ولكنه مع ذلك هو العامل المؤثر والفعال لكل ما يحدث لتلك البيضة من انقسامات وتخلق ونمو ثم تحديد الذكورة والأنوثة للمخلوق الجديد. . .

في الأرحام:

وبعد التقاء الحيوان المنوي بالبويضة تتكون الخلية الزيجوت Zygote الذي يكون إما حاملاً للصبغي « Y » وإما غير حامل له. . وهذا الزيجوت ينقسم وينمو مكوناً العلقة فالمضغة ويمر بمراحل التخلق المختلفة التي تحدث عنها القرآن الكريم في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج/ ٥].

وكذلك قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون/١٢، ١٤] وغيرها من الآيات.

وحتى نهاية الأسبوع الرابع فان التركيب التشريحي للجنين الذكر

(الحامل للصبغي Y) لا يختلف عن الجنين الأنثى (غير الحامل للصبغي Y) داخلياً وخارجياً، بعد ذلك تبدأ داخل الجسم وخارجه نتوءات خلوية واخاديد دقيقة في الظهور تدريجياً وهي براعم الأعضاء التناسلية ولكنها حتى تلك المرحلة لا تتميز إلى أعضاء ذكورة أو أعضاء أنوثة. . ويبدأ تمايز تلك النتوءات والأخاديد في الجنين الذكر قرب نهاية الأسبوع السادس من الحمل وذلك نتيجة لأوامر من الصبغي « Y » تؤدي إلى تجمع خاص بين الخلايا لتكوين الخصيتين بقنواتهما وخلاياهما التي تبدأ في إفراز هرمونات الذكورة وهذه الهرمونات تؤدي إلى تشكل مجموعات الخلايا خلال الأسبوع السابع إلى الأعضاء الجنسية الذكرية مثل البروستاتا والحويصلات المنوية والقنوات المنوية والقضيب والصفن وقناة مجرى البول (الإحليل).

أما في حالة عدم وجود صبغي « Y » أي أن الزيجوت يحمل بدلاً منه صبغي «X» فإن تلك البراعم من التجمعات الخلوية والأخاديد الدقيقة السابق ذكرها تتشكل مكونة الأعضاء التناسلية للأنثى مثل المبيضين والرحم وقنوات فالوب والمهبل وما يتصل بها من غدد، غير أن ذلك لا يبدأ إلا في الأسبوع الثاني عشر.

وعادة ما يتم تشكل الأعضاء التناسلية الداخلية والخارجية في الجنين بنهاية الشهر الرابع حيث يمكن بسهولة تمييز الذكر من الأنثى. . ويتمكن الأطباء حالياً من تمييز جنس الجنين داخل الرحم باستخدام أجهزة الأصوات فوق المسموعة Ultrasound حيث تسلط الموجات إلى منطقة الأعضاء التناسلية التي يمكن تحديدها بوضوح بواسطة تلك الأجهزة بدء من الشهر الرابع للحمل. .

وهكذا نرى أنه إذا وجد الصبغي الذكري «Y» فانه يهيمن

ويسيطر على عمليات النمو الجنسي وبذلك فان التحول إلى الذكورة يبدأ مبكراً خلال الأسبوع السادس، أما في غيابه فإن نمو الخلايا والأنسجة إلى أعضاء أنثوية يتأخر حتى الأسبوع الثاني عشر. وهذا ما حدا بعض الباحثين إلى القول بأن نمو الجنين هو إلى الأنوثة إلا إذا طرأ طارىء فحول الطريق إلى الذكورة وهذا الطارىء هو الصبغي « Y »..

ولكننا نقول إن ما يحدث إنما هو دليل آخر من دلائل قوامة الذكر المتمثل بالصبغي « Y » على الانثى المتمثلة بالصبغي « X »..

وواقع دراسة الصبغيات وعلوم الوراثة يدل على ذلك.. إذ إن وجود صبغي « Y » واحد فقط مع أي عدد من صبغيات « X » يؤدي إلى ذكورة الجنين. فمن المشاهدات أن بعض المواليد يحملون في خلاياهم اعداداً من الصبغيات أكبر من العدد المعروف فبعضهم يحمل ٤٧ صبغياً وبعضهم ٤٨ وأحياناً ٤٩ صبغياً.. ففي حالة وجود تلك الأعداد الزائدة، قد يكون الجنين حاملاً لأكثر من صبغي X مثلاً X X Y أي صبغياً واحداً Y واثنين X أو مثلاً X X X Y أوX X X X Y ومع ذلك وعلى الرغم من زيادة عدد صبغيات الأنوثة وبقاء صبغي الذكورة Y واحداً فقط فان الأطفال الحاملين لتلك الأنماط من الصبغيات يولدون كلهم ذكوراً كاملي الذكورة وذلك لسيطرة الصبغي Y وهيمنته على ما عداه من صبغيات الأنوثة مهما كانت أعدادها... أما إن كان عدد الصبغيات أكثر من ٤٦ ولا تحتوي على الصبغي Y فمثلاً عند غياب الصبغي Y وتكون الخلايا حاملة للصبغي X فقط أو أثنين X X أوX X X أو X X X X فان المواليد في تلك الحالات يَكُنَّ إناثاً دائماً. وهكذا تتأكد قوامة الذكر على الأنثى

على هذا المستوى كذلـك بالإضـافة إلى غـير ذلك من مـظاهر القـوامة المعروفة. وصدق الله العظيم ﴿الـرجال قـوامون عـلى النساء بمـا فضل الله بعضهم على بعض. وبما أنفقوا من أموالهم﴾ [النساء/ ٣٤].

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾

ان الازدواجية في الكائنات الحية من الظواهر العالمية التي تشمل جميع الكائنات على الأرض تقريباً. . وقد استطاع الانسان أن يدرك وجودها في كثير من المخلوقات. فمن الانسان زوجان ذكر وأنثى ومن الحيوانات والطيور والأسماك. وكذلك من النباتات. . وهذه الازدواجية كما يبدو لنا سنة من سنن الخالق عز وجل لتحقيق استمرار وجودنا وغيرنا من المخلوقات الحية على الأرض إلى أن يشاء الله. . وذلك عن طريق التزاوج بين كل زوجين وما ينتج عن ذلك من التناسل وظهور أفراد جديدة تمتزج فيها المادة الوراثية المنقولة من الأب والأم أي من الزوجين الذكر والأنثى. . وعندما تبلغ تلك الأفراد الجديدة مرحلة خاصة من النمو مميزة لكل نوع فانها تتزاوج فيما بينها لتعيد الكرَّة وتنتج أفراداً جديدة تستمر حياتها بعد انتهاء أسلافها السابقين. فالأفراد من كل نوع محكوم عليهم بالموت ولكن حياة الأنواع مستمرة إلى أن يشاء الله. وليس لفرد من الأفراد ولا ينبغي له الخلود في الأرض تحقيقاً لسنة الخالق عز وجل: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه/ ٥٥] وخطابه لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ [الأنبياء/ ٣٤].

وعادة ما يتميز المظهر الخارجي لكل من الزوجين عن الآخر. كما هو واضح في الانسان وكثير من الحيوانات والطيور. إلا أنه كثيراً ما يصعب علينا التمييز بين الذكر والأنثى في كثير من المخلوقات بالنظرة السطحية أو المظهر الخارجي لها. بالعين المجردة. فمن الصعب معرفة جنس كثير من الطيور أو الأسماك أو الزواحف أو الديدان. ولكن هذه المخلوقات يتعرف كل من الذكر والأنثى على الآخر بسهولة ويسير منجذباً إليه ومرتبطاً به.. غير أن الطباع والتصرفات وأنماط الحياة وأساليبها تختلف بين الذكر والأنثى دائماً وذلك ما يمليه ويفرضه ما جبل عليه كلاهما من غرائز وحاجات تستلزمهم طبيعة الذكورة والأنوثة ووظيفتها في الحياة..

فالذكر عادة يتميز بالقوة ومواجهة التحديات الخارجية ورد العدوان عن أسرته أو عشه أو أطفاله. وغالباً ما يكون له النصيب الأكبر في توفير الغذاء والرعاية للأنثى.. وقد يكتفي الذكر بأنثى واحدة يلازمها دائماً وقد تتعدد زوجاته وقد لا تكون له أسرة بالمرة وإنما ينتقل حسبما اتفق.

أما الأنثى فتنحصر دائماً وظيفتها الأساسية في الانجاب ورعاية النسل حتى يبلغ حداً محدداً من النمو غير أنها في بعض الأحيان تتميز بالقوة والشراسة لدرجة قتل الذكر بعد التلقيح مباشرة مثل العنكبوت وبعض الحشرات التي تقتل الزوج وقد تتغذى به بعد أن يلقحها مباشرة فتكون مكافأته من الأنثى القتل فقد انتهت مهمته في الحياة. وعادة ما تكتفي الأنثى بزوج واحد إن كان الحيوان من الذي يعيشون في مجتمعات محددة. حيث يرعى الأسرة ذكر واحد دائماً. وقد تتعدد الإناث ولكن لا يوجد تعدد أزواج ذكور في الأسرة الواحدة.. وكثيراً

ما تشارك الأنثى ويكون لها دورها الإيجابي الفعال في جلب الطعام وفي حماية الأسرة والدفاع عنها ضد أي غزو أو اعتداء خارجي.

أما من ناحية التركيب التشريحي للجسد وأعضائه المختلفة فإن الملاحظ بالنسبة للإنسان وجود ثلاثة أنواع من الأعضاء. أولها الأعضاء المكونة للأجهزة التناسلية وهي تختلف في الذكر عنها في الأنثى شكلاً وتركيباً ووظيفة. وثانيها الأعضاء التي تتأثر بالهرمونات الذكرية أو الأنثوية فتتخذ شكلاً متميزاً في كل جنس ولكنها تتماثل تركيباً ووظيفياً في الذكر والأنثى مثل العضلات وبعض العظام والأنسجة الدهنية والحنجرة والشعر وغير ذلك.. وثالثها هي الأعضاء التي لا يمكن التفرقة في تركيبها أو وظائفها بين الذكر والأنثى. فمعدة الذكر لا تختلف بأي حال من الأحوال عن معدة الأنثى وكذلك الأمعاء والكليتان والرئتان والقلب والأوعية الدموية والليمفاوية وغير ذلك مما لم يستطع الإنسان حتى الآن اكتشاف ما فيها من اختلافات بين الذكر والأنثى غير بعض التفاوت في الحجم أو الوزن أما من ناحية التركيب الكيميائي والخلوي والنسيجي فلم يستطع أحد أن يذكر اختلافات مميزة لكلا الجنسين في ذلك النوع الثالث من الأنسجة.

أما عن الأجهزة التناسلية:

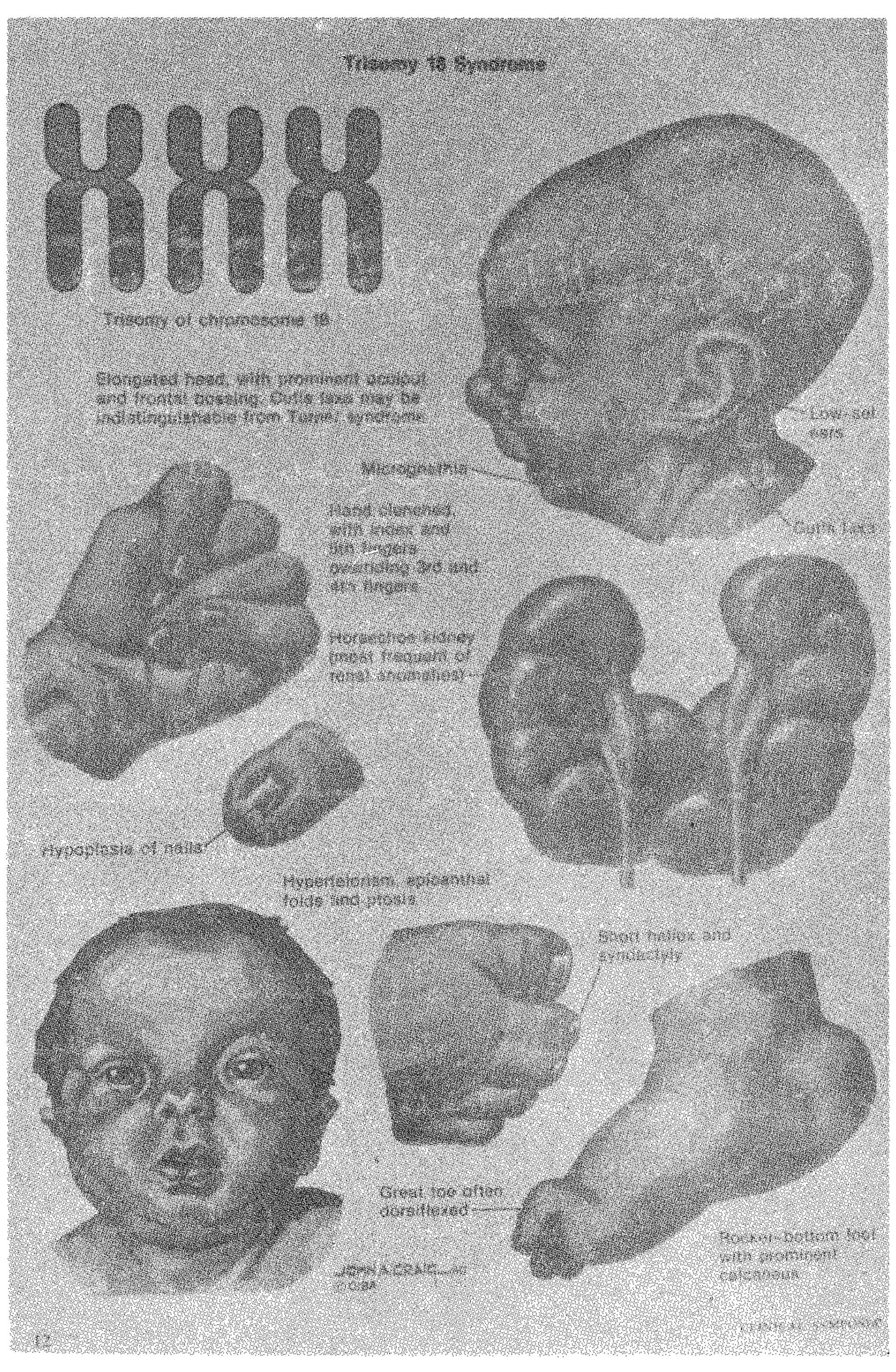
فإن التباين والاختلاف بينهما واضح أشد الوضوح وذلك لاختلاف وظيفة كل منها في الذكر والأنثى وإن اتحدا في الغاية وهي الإنجاب وحفظ النوع. فالجهاز التناسلي في الذكر ينحصر في الخصيتين وما يتصل ويرتبط بهما من غدد مثل البروستاتا وغيرها ثم العضو التناسلي للذكر وما يلحق به من غدد وعضلات تساعد على قذف المني

أثنـاء الاجتماع بـالأنثى. . والخصية ذات تـركيب خـاص من الخـلايـا سريعة الانقسام لتكوين الحيوانات المنوية بصورة مستمرة تبدأ عند سن البلوغ وتستمر حتى الوفـاة إذ يستطيـع الذكـر الإنجاب حتى لـو تعدى عمره المائة سنة. . فالخصية دائمـة النشاط وخـلاياهـا دائمة الانقسـام لإنتاج الحيوانات المنوية التي تتجمع في قنوات خاصة مرتبـطة بالخصيـة ويضاف إليها إفرازات خاصة لتبقى على حيويتها ونشاطها وتظل هكذا لحين اجتماع الذكر بالأنثى حيث تندفـع الحيوانـات المنويـة في قناة المني التي تخترق غدة البروستاتا لتندفع من خلال عضو الذكـورة (القضيب) إلى داخـل مهبل الأنثى وعنق الـرحم. وإذا حدث وبقيت الحيـوانـات المنـوية لفـترة طـويلة أي عـدة أيـام أو أسبـوع مثـلاً دون قـذف فـإنها تموت وتتحلل ويحل محلها حيوانات منوية جديدة من خلايـا الخصية. . وتعد الحيوانات المنوية في كل قذف أثناء الجماع بالمـلايين حيث يقـارب عددها المائتي مليون حيوان منوي وهو عدد هائل إذا علمنا أن المطلوب لتلقيح بويضة الأنثى هو حيـوان منوي واحـد فقط يتم اختياره بمشيئـة الله وقدرته وحده. . فتخيل مثـلاً لو أنـك أردت أن تختار فـرداً واحداً من بين أفراد دولة تعداد سكانها مائتي مليون مجتمعين في صعيـد واحد لأداء مهمـــة يلزم للقيـام بهـــا فـرد واحـــد فكيف يمكن التحـديـد أو الاختيار. . ولاختلاف نشاط الخصيتين الحيوي عن باقي الجسم فـإنهما موجودتان داخل كيس الصفن أي خارج تجويف البطن وبذلـك تكون درجة الحرارة حولهما أقل من درجة حرارة داخل الجسم وبذلك تعملان في ظروف حرارية مثالية بالنسبـة لنشاطهـما الحيـوي إذ لـو حدث مثـلاً وبقيت الخصية داخل تجويف البطن فـإن نشاطهـا يتعطل ولا تستـطيع خلاياها الانقسام لإنتـاج حيوانـات منويـة وتلك هي إحدى الحـالات

المعروفة كسبب من أسباب عقم الرجال. كما إنه تجدر الملاحظة بأن نقص عدد الحيوانات المنوية أو نقص حيويتها قد يؤدي إلى العقم فمثلاً قد يقذف الذكر عند الجماع خمسين مليون حيوان منوي تصل جميعها إلى مهبل الأنثى وعنق الرحم. ولكن تفشل تلك الأعداد الهائلة في إتمام تلقيح بويضة الأنثى إذ لا ينجح أي واحد منها في الوصول إلى البويضة على الرغم من أعدادها الهائلة التي تقارب أعداد سكان دولة مثل جمهورية مصر العربية.. فسبحان الذي قدر فهدى وخلق كل شيء بحسبان ووضع لكل شيء ميزان.

والخصية بعد ذلك تقوم بإنتاج هرمونات الذكورة التي تندفع مع الدم إلى جميع أجزاء الجسد مؤدية إلى إحداث تغييرات كثيرة في أنسجة خاصة بالإضافة إلى التغيير النفسي والميل ناحية الجنس الآخر. فنجد أن شعر الجسم يبدأ في اتخاذ مظهر الذكورة حيث يبدأ ظهور شعر اللحية والشارب وينحسر قليلاً شعر الرأس وقد ينتهي بالصلع كما يزداد شعر الصدر كثافة ويرتفع شعر العانة حتى يصل إلى السرة كما يزداد نمو عضو الذكورة. وكلها مميزات للذكر وليس لها مثيل في الإناث لغياب هرمونات الخصية لديهن.. كما يحدث تغيير في صوت الذكر فتقل طبقته وينخفض تردده وتزداد غضاريف الحنجرة نمواً مما يجعلها تبرز أكثر من مثيلاتها في الإناث مما يطلق عليها «تفاحة آدم» في مقدمة الرقبة.. ويزداد نمو العضلات والعظام وبذلك تتميز عظام الذكور عادة بأنها أضخم من عظام الإناث وبظهور علامات اتصال العضلات وأوتارها بها بشكل ملحوظ عن مثيلاتها في الإناث.

وأما الجهاز التناسلي في الأنثى فيتكون أساساً من الرحم



تنشأ الصور الخلقية نتيجة تغير في تركيب أو في عدد الصبغيات (الكروموسومات) كما هو ظاهر في الصورة نتيجة زيادة عدد الصبغيات رقم ١٨ (ثلاثة أزواج بدلاً من زوجين).

وملحقاته من مبيضين وقناتين تصلان بين المبيضين والرحم تسميان قناتي فالوب، ويبرز عنق الرحم في أعلى المهبل الذي يفتح إلى خارج الجسم بفتحه خاصة بين الشرج من الخلف وفتحه إخراج البول من الأمام ويحيط بها بعض الغدد الخاصة بإفراز مواد دهنية وغيرها. .
ويقوم المبيضان عند سن البلوغ بإنتاج البويضات وذلك بمعدل بويضة واحدة كل شهر قمري تقريباً. وذلك يحدث بانقسام خلايا خاصة في المبيضين حتى تصل إحدى تلك الخلايا إلى مرحلة النمو النهائية لتكوين البويضة فتنطلق تلك البويضة خارجة إلى قناة فالوب تاركة مكانها تجمّعاً خلوياً خاصاً يطلق عليه لقب الجسم الأصغر Corpus Luteum وفي تلك اللحظة يقف نمو باقي الخلايا في كلا المبيضين فلا يصل إلى قناتي فالوب أو الرحم بعد ذلك غير بويضة واحدة شهرياً. .
وعادة ما تحدث عملية التبويض هذه أي انطلاق البويضة من المبيض قبل بدء الدورة الشهرية للحيض بحوالي أسبوعين وقد يصاحبها ألم بسيط أسفل البطن أو الظهر وعادة ما ترتفع درجة حرارة الجسم نصف درجة وهذه الظاهرة تستخدم أحياناً لمعرفة وقت التبويض كوسيلة من وسائل تنظيم النسل أو منع الحمل وذلك بتحاشي الجماع بين الزوجين عند حدوث التبويض ولفترة أسبوع تقريباً قبل ذلك وبعده وهي طريقة غير مجدية في كثير من الأحيان لاعتبارات كثيرة. .

وأما الرحم فهو عضو عضلي يحتل مكانه في تجويف حوض الأنثى خلف المثانة البولية وأمام الجزء الأخير من الأمعاء الغليظة. .
والرحم مبطن بغشاء مخاطي له طبيعة خاصة حيث يبدأ في النمو بعد انتهاء الحيض مباشرة فتزداد خلاياه وأنسجته ويزداد سمكه وأوعيته الدموية وذلك بتأثير هرمونات خاصة يقوم المبيضان بإفرازها خلال نمو

البـويضات وبـواسطة الجسم الأصغـر بعد انـطلاق البويضـة إلى قنـاة فالوب. وبذلك يستعد الغشاء المبطن للرحم لاستقبال البـويضة إن تم إخصابها بحيوان منوي. ولكن في حالة عـدم إخصاب البـويضة نجـد أن نمو هذا الغشاء المبطن للرحم يصل إلى حد معين لا يتعداه ثم تبـدأ عضلات الرحم في التقلص ويتساقط هذا الغشاء المبطن للرحم ويخرج خلال المهبل على هيئة دم الحيض ويستمر ذلك بضعة أيام يبدأ بعدهـا دورة جـديدة من النمـو ثم الانفصـال والخـروج عـلى هيئـة دم حيض وهكذا. وفي كثير من الأحيان يسبق خروج دم الحيض ويواكبه تغيرات في الحالة النفسية للأنثى مثـل الضيق والاكتئاب والتـوتر والخـوف وغير ذلك بالإضافة إلى آلام أسفل البطن والظهر وأحياناً تقلصـات شديـدة مما قد يمنع الأنثى من ممارسة أنشطتها وأعمالها بطريقـة عاديـة وكثير من النسـاء يصبحن في تلك الفترات سريعـات الغضب والانفعـال ويـثرن لأتفـه الأسباب ممـا يؤثر عـلى مقدرتهن عـلى اتخاذ القـرارات والتصرف بحكمـة في كثير من الأحيـان. . ومن الملاحظ أن كثيـراً من الأعراض غير العادية التي تسبق الحيض وتواكبه تخف حدتها كثيراً أو تختفي بعـد الزواج وخصوصاً بعد أول ولادة. .

أما حين يتم تلقيح البويضة والذي يتم عادة في قناة فالوب فـإن الرحم يستعد لاستقبالها حيث يستمر غشاؤه المبطن له في النمو وكذلك عضلاته وأوعيته الدموية. وحين تستقر البويضة الملقحة والمنقسمة على الغشـاء المبطن للرحم فـإنه يحيط بهـا من كل جـانب كما تحيط الأرض بالبذرة المغـروسة فيهـا. فتمدهـا بالغـذاء والرعـاية حتى تنمـو في ذلك «القرار المكين» إلى أن تحين ساعة الولادة فيقوم الرحم بدفع الجنين إلى خارج الجسم عن طريق المهبل خلال الـولادة بواسـطة تقلصات قـوية

لعضلات الرحم تأخذ نظاماً دقيقاً منسقاً بحيث تؤدي إلى دفع الجنين إلى الخارج دون أن تسبب له أذى يذكر. .

وتنتهي مقدرة المبيضين على إنتاج البويضات عند مرحلة معينة من العمر تكون غالباً عند اقتراب نهاية العقد الخامس من أعمارهن وبذلك تفقد الأنثى القدرة على الحمل والإنجاب ابتداءً من تلك السن مما دعا إلى إطلاق لقب «سن اليأس» على تلك المرحلة أي اليأس من المحيض وبالتالي من الحمل والإنجاب. . وتلك المرحلة تتميز عادة باضطرابات نفسية وجسدية متنوعة نتيجة انقطاع بعض الهرمونات الأنثوية ونتيجة انقطاع الحيض وما لذلك من تأثير نفسي لدى الكثير من النساء لشعورهن بانتهاء وظيفتهن في الإنجاب وحفظ النسل.

والمبيضان بالإضافة إلى كونهما منتجان للبويضات فهما فوق ذلك منتجان لهرمونات الأنوثة والتي يظهر أثرها على الجسم عند اقتراب سن البلوغ مما يميز الأنثى عن الذكر. . تلك الهرمونات لها تأثيرها على أعضاء الجسم المختلفة مثل ما لتأثير هرمونات الخصيتين على أعضاء جسم الذكر ولكنها بالإضافة إلى ذلك لها دور خاص بالنسبة للحمل والولادة والرضاعة مما تتميز بها الأنثى عن الذكر. . فهرمونات الأنوثة يظهر تأثيرها على المظهر الخارجي للأنثى حيث يأخذ الشعر مظهره الأنثوي فيزداد نمو شعر الرأس ويقل نمو شعر باقي البدن. ولا تنمو اللحية أو الشارب كما يقف شعر العانة عند خط أفقي أسفل البطن ولا يرتفع إلى السرة ويظل شعر الجبهة كما هو دون الرجوع إلى الخلف. . ويزداد تردد نغمة الصوت المميزة للإناث حيث تظل غضاريف الحنجرة على حالتها فلا تنمو كما يحدث في الذكور. ويزداد النسيج الدهني تحت الجلد في كل مكان من جسد الأنثى مما يميز

الأطراف بالاستدارة وباقي الجسد بالليونة مقابل المظهر للذكور وتظل عظام الجسد على حالتها من الدقة وصغر الحجم مما يميزها عن عظام الذكور. . ويلاحظ هنا أن هناك تغيرات خاصة بعظام الحوض تحدث في الإناث وذلك لتحضيره لاحتضان الرحم أثناء العمل ولتسهيل عملية الولادة بعد ذلك. . لذلك نجد أن حجم حوض الأنثى عموماً أكبر من حجم حوض الذكر. كما إنه يتميز باتساع مدخله العلوي من ناحية البطن ومخرجه السفلي من ناحية العجان (المنطقة بين أعلى الفخذين حيث مخارج القولون والمهبل وقناة مجرى البول). . ومن الملاحظات الطبية الطريفة أنه بمقارنة المسافة الأفقية بين أبعد نقطتين. . (يميناً ويساراً) لعظام الحوض فإننا نجدها أكبر من المسافة الأفقية بين أبعد نقطتين من عظام الكتفين في الإناث بعكس الحال في الرجال حيث يبدو الكتفان أعرض من الحوض (الأرداف) وتلك من الملاحظات القديمة والتي تبدو واضحة في الآثار المصرية القديمة عند رسمهم أو نحتهم لصور أو تماثيل تمثل الذكور والإناث. .

وللهرمونات الأنثوية تأثير خاص على نمو غدد الثديين حيث يؤدي ذلك إلى زيادة حجم الثديين واستدارتهما ليتخذا المظهر المميز للأنثى. وتنمو الغدد داخلهما استعداداً لإفراز الحليب بعد الولادة لتغذية المولود الجديد. وهي تغيرات لا مثيل لها في الذكور الطبيعيين.

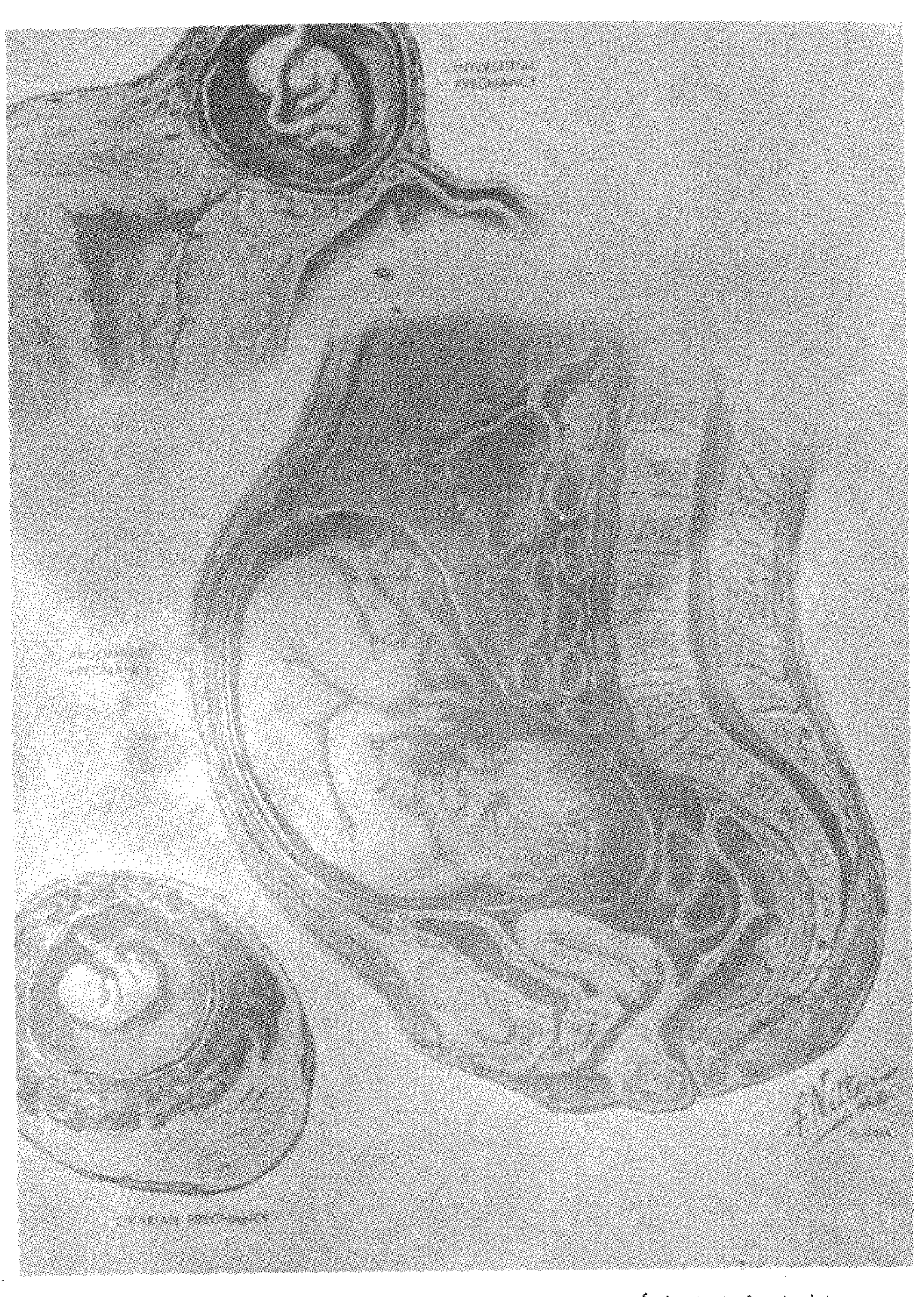
وعندما تقترب مرحلة الولادة فإن الهرمونات الأنثوية تساعد على إضعاف قوة الأربطة المحيطة بمفاصل الحوض وأسفل العمود الفقري كخطوة مساعدة لتوسيع حجم تجويف الحوض العظمي وتسهيل عملية الولادة. . وأحياناً ما يؤدي ذلك التأثير على أربطة مفاصل الحوض إلى آلام أسفل الظهر وعلى جانبيه في أشهر الحمل الأخيرة عند بعض

الإناث ولكنها تختفي بعد الولادة والعودة إلى الحركة الطبيعية.

وللهرمونات الأنثوية تأثيرها النفسي بالنسبة للإناث وتوجيه ميولهن الجسدية والغريزية إلى الجنس الآخر. كما أنها - بالإضافة إلى عوامل أخرى - تحدد طبيعة وأنماط سلوك الأنثى الذي يميزها عن الذكور وتعطي للأنثى شخصية متميزة عنه.. فقدرة احتمال الأنثى للحمل وصبرها على الرضاعة وتربية المولود وحنانها الغامر وصبرها على ما يصدر من المولود بعد ولادته وفي أطوار حياته وعواطفها الفياضة كلها أمور تميز الأنثى عن الذكر وتحددها طبيعتها وفطرتها التي فطرها الخالق سبحانه وتعالى عليها.. والتي تقوم الهرمونات بدور فيها.

وبذلك نرى أن الذكر البالغ يتميز خارجياً وداخلياً عن الأنثى البالغة فيما يختص بالأعضاء التناسلية الداخلية والخارجية ثم بالأعضاء والأنسجة التي تقع تحت تأثير الهرمونات الجنسية (الذكرية أو الأنثوية) في كل منهما.. أما باقي أعضاء الجسم وتشمل الأعضاء الحيوية فيه مثل الدماغ والقلب والكليتين وأجهزة الإحساس مثل العينين والأذنين واللسان والأعصاب وغير ذلك فهي متشابهة في الذكر والأنثى تماماً.. وذلك أن الاختلافات المذكورة في الأعضاء الأخرى إنما هي لتحقيق الزوجية ومهمتها في الحياة من ميول غريزية فطرية وما تؤدي إليه من قوى تدفع الزوجين إلى التلاقي لتحقيق استمرار وجود الإنسان على الأرض عن طريق التزاوج ونقل المادة الوراثية من الزوجين كليهما إلى نسلهما بعد ذلك.

ويختلف السن الذي تبدأ عنده التغيرات المميزة للجنس في الظهور من شخص لآخر ومن بلد لآخر. فمثلا قد تبدأ تلك التغيرات في سن التاسعة في الأوروبيين مثلاً وبلاد كثيرة غيرهم في حين أنها تبدأ



يتميز الجهاز التناسلي للأنثى عن الذكر كما نرى كيف يحتضن الرحم الجنين حتى ولادته.

في سن متأخرة عن ذلك في بلاد أخرى. إلا أن البلوغ وهو الذي يحدده ظهور الحيض في الاناث والاستمناء في الذكور يتأخر عن ذلك عادة بضع سنوات. . ويتحدد سن البلوغ في الذكور بظهور شعر العانة وازدياد كثافته ونمو الخصيتين والقضيب وظهور شعر اللحية والشارب وظهور شعر الابطين. . بينما يتحدد البلوغ في الاناث بابتداء الحيض ونمو الثديين وازدياد كثافة شعر العانة وشعر الابطين. .

وباقتراب سن البلوغ نجد نمو الجسم في الطول يزداد بشكل واضح وخصوصاً في الاناث حيث يبلغ معدل نموهن الطولي أقصاه قبل بدء ظهور الحيض لديهن بينما يبلغ نمو الذكور أقصاه بعد البلوغ ويستمر أطول أمداً من النساء مما يجعل معدل طول الذكور أكبر من الاناث بشكل عام.

ويبدأ إحساس الذكر بالميل الفطري نحو الأنثى قبل إحساسه بالميل الجنسي تجاهها بفترات متباينة فهو ينجذب نحو مظهرها الأنثوي وملابسها المميزة ويميل للسيطرة عليها ولا يشعر بمثل ذلك ناحية أمثاله من الذكور. ومثل ذلك يحدث بالنسبة للأنثى باقتراب سن البلوغ. . ويبدأ كل من الجنسين في الاختلاط ببني جنسه ويتحدد تعامله معهم أكثر من تعامله مع الجنس الآخر وحين تتجه هوايات كثير من الذكور إلى بعض الألعاب التي تتسم بالاندفاع والشدة وأختبارات القوة والاحتمال فان الاناث على العكس يتجنبن تلك ويكتفين منها عادة بموقف المتفرج.

حتى أرذل العمر:

وتستمر الاختلافات الخارجية والداخلية بين الذكر والانثى حتى نهاية العمر ولكن بدرجات متغيرة فالأنثى تمر عادة بمراحل متتالية أثناء

دورة الحيض، ثم بمراحل من الحمل والولادة والرضاعة. حيث تعاني أثناء الحمل وأثناء المخاض والولادة وأثناء الرضاعة ورعاية الصغار. وتفقد الكثير من القوة مع كل حمل وولادة، ومع تتابع الحيض.. ورغم ما تعانيه المرأة أثناء الحمل والولادة، فانها ـ كآية من آيات الله ـ تسعد بكل حمل جديد وتزداد سعادة بكل مولود جديد.. وحتى بعد سن اليأس فان عواطف الأنثى وأحاسيسها لا تتغير وشعورها بمسؤوليتها لرعاية الأسرة لا تنتهي. فالمرأة هي دائماً السكن والرعاية والحنان وموطن الحب والسكينة في الأسرة والطمأنينة للجميع في كل مراحل حياتهم فلا تستقيم حياة الرجل إلا بالمرأة ولا تستقيم حياتها إلا بالرجل ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [الروم/٢١].

ودور المرأة في الحمل والانجاب ورعاية الأولاد مظهر عالمي دائم لم يتخلف في وقت من الاوقات منذ خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام.. ولذلك فدور الرجل متمم لدورها بما آتاه الله من قدرات على العمل والسعي وبما حباه من فطرة غيورة وقوة بدنية وخلو من معوقات الحيض والحمل والرضاعة وبما أعطاه من قدرة على الانجاب حتى نهاية عمره. فهو دائماً العامل الأقوى في الأسرة والراعي للجميع والمتحمل لمسؤوليات الصغير والكبير والمسؤول عن حماية الأسرة وحفظ كيانها. وكلها من مظاهر وسبل قوامة الرجل على المرأة كما قرر ذلك الخالق سبحانه وتعالى ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ [النساء/٣٤].

في مجال الأمراض

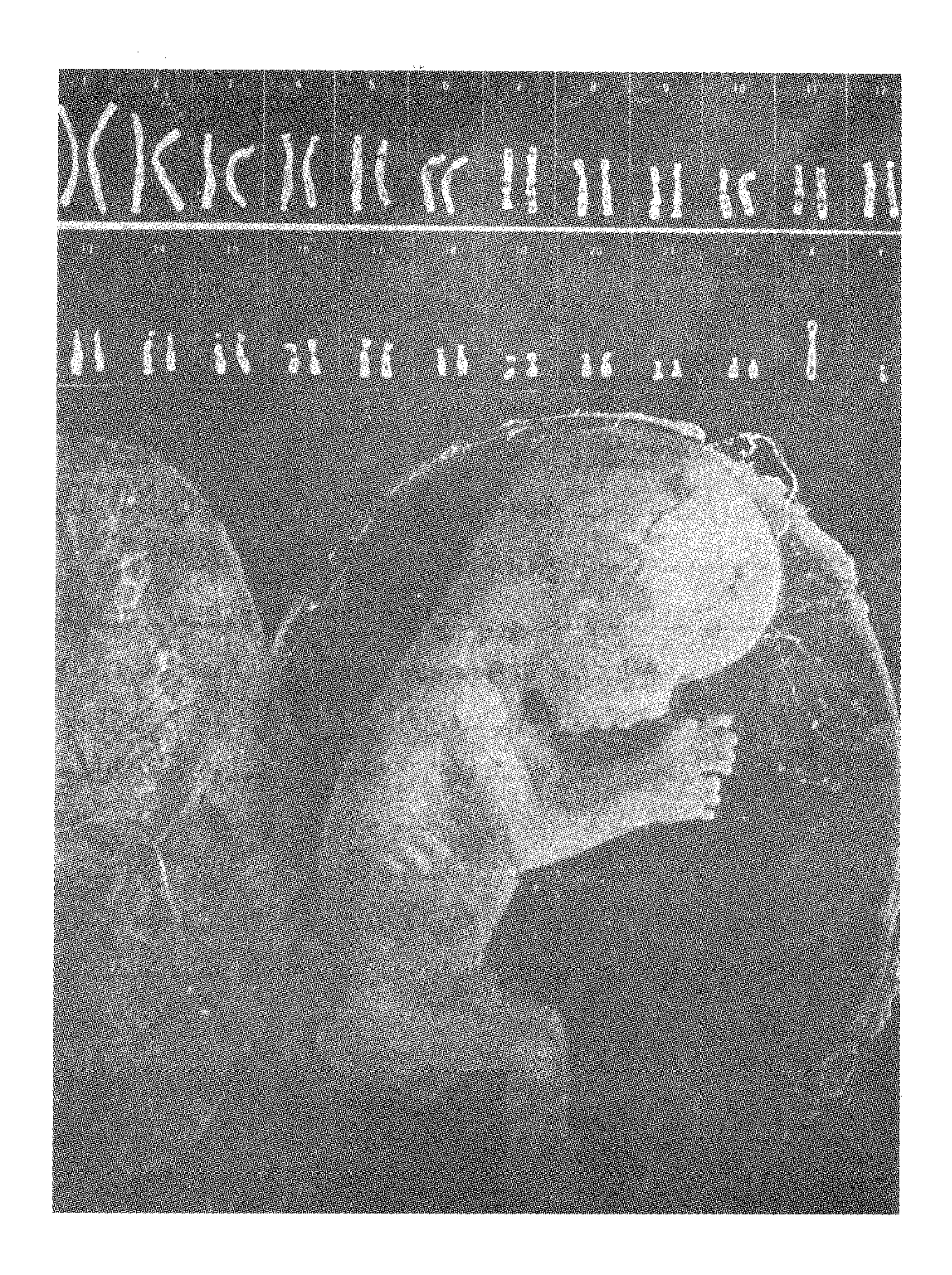
يلتقي الحيوان المنوي بالبويضة وكلاهما يحمل في داخله مجموعة مجلدات ضخمة يحتوى كل منها على كم كبير جداً من المعلومات المبرمجة بشكل لا يتخيله إنسان. تلك هي الصبغيات أو الكروموسومات حاملة كل ما يتصل بالجنين الجديد من معلومات.. وتمتزج صبغيات الأب القادمة في الحيوان المنوي مع صبغيات الأم في البويضة ويتم التزاوج بينهما لتبدأ المجموعة الجديدة من الصبغيات الستة والأربعين في الخلية الزيجوتية في العمل واصدار الأوامر فتبدأ الخلية بالانقسام والنمو والتخلق والتشكل تبعاً لما لديها من أوامر مبرمجة داخل تلك الصبغيات. وتحدد تلك الأوامر كل ما يتصل بحياة المخلوق الجديد من نمو ومظهر خارجي وتركيب داخلي ونشاطات بيولوجية وأنقسامات خلوية ونسيجية وقدرات الغدد وأنشطتهم وقدرات الجسم ومقاومته ومناعته.. الخ. فكل صغيرة وكبيرة محددة وطريقها مرسوم بارادة الله تعالى ومشيئته مصداقاً لقوله تعالى ﴿يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ [آل عمران/٦].

وبتزاوج صبغيات الأب مع صبغيات الأم فان الحصيلة النهائية تكون مزيجاً من صفاتها معاً. وقد تغلب بعض صفات الأب الظاهرية أو الداخلية فيشابه المولود أباه، وقد تغلب بعض صفات الأم فيشابه

المولود أمه وتسمى تلك الصفة سـائدةDominant أو مسيـطرة في تلك الحـالات وقد يشـابه المـولود أبـويه معـاً في بعض الصفات إذا اتحـدت الصفتان المنقولتان من الأب والأم وتسمى الصفة هنا متنحية Recessive وقد لا يشابه المولود أياً من أبويه حيث تظهر فيه صفات لم تكن ظـاهرة فيهما كنوع من الصفات المتنحية كـذلك وبـذلك يختلف عنهـما ظاهـرياً وفي تلك الحالة قد يتشابه مع أحد جدوده السابقين.

ان ما تحمله الصبغيات من صفـات مبرمجـة هو أحـد الأسرار التي شـاء الخالق سبحـانـه وتعـالى أن يعلمهـا لـلانسـان في القـرن العشرين كـإحدى اعجـازات تلك الآية الكـريمـة ﴿يصـوركم في الارحـام كيف يشاء﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد أي واحـد من تلك الملايـين من الحيـوانات المنـوية هـو الذي سينجـح في تلقيح البـويضة . . وهـو سبحانه وتعالى هو الذي يحدد كيفية انقسام الصبغيات وكيفية انفصـالها عن بعضها عند تكوين الحيوانات المنوية والبويضات ثم كيفية التحامها عند تكوين الزيجوت بعـد التلقيح . وهـو سبحانـه الذي يحدد أيـاً من تلك الصبغيات يبقى على حاله وأيها يتغير بالزيـادة أو بالنقصـان . وهو سبحانه وتعالى الذي يحـدد أياً من تلك الصفـات المبرمجـة يظهـر وينشط وأيها يكمن ويختفي ليظهر في جيل لاحق أو لا يظهر بعد ذلك . .

فقد يتغير عـدد الصبغيات وقـد يتغير تـركيبها وقـد تظهـر بعض الأوامر المبرمجة على بعضها وقد تختفي ، وكل ذلك من أمر الله الذي لا يدري الناس عن كيفيتـه شيئاً ، ولكن استـطاع العلماء مشاهـدة بعض تلك التغيرات واكتشاف أهميتها لارتباطها بأنـواع مختلفة من الأمـراض المـــوروثـة Hereditary Diseases والـولاديـة Congenital والمكتبســة Acquired حيث أمكن مـلاحـظة الارتبـاط الـواضـح بـين بعض تلك



◄ رحلة البداية والنهاية من النطفة إلى الجنين.

التغيرات وأمراض محددة المعالم. . فتلك التغيرات في تكوين أو في عدد الصبغيات قد تكون موجودة أصلاً في الخلايا الابتدائية وهي الحيوان المنوي أو البويضة. . . وقد تطرأ أثناء تزاوج صبغيات الحيوان المنوي بصبغيات البويضة وقد تطرأ على الخلايا فيما بعد خلال الأسابيع الأولى من الحياة الجنينية نتيجة عوامل خارجية مختلفة أشهرها تعرض المرأة الحامل للاشعة السينية (أشعة إكس) أو الإشعاعات النووية الذرية أو المتأينة كما حدث في كوارث هيروشيما ونجازاكي وتشير نوبل أو تعرض الحامل للاصابة ببعض الأمراض الفيروسية مثل الحصبة الألمانية والإنفلوانزا أو تعاطيها لبعض أنواع الأدوية دون العودة إلى الطبيب المختص لاستشارته وذلك أن عدداً كبيراً من الأدوية والعقاقير الطبية قد يؤثر بشكل أو بآخر على خلايا الجنين إذا تعاطتها الحامل خلال أسابيع الحمل الأولى. . كما أن نسبة حدوثها تزداد بزيادة عمر المرأة وقت الحمل وهذه الآثار والتغيرات الحادثة في الصبغيات تصيب الأجنة ذكوراً وإناثاً على حد سواء، وتؤدي التغيرات في تركيب أو في عدد الصبغيات إلى إحتمالات كثيرة. فقد ينمو الجنين بشكل غير عادي يستحيل معه بقاؤه حياً فيموت وينتهي الحمل مبكراً بالسقط أو الاجهاض. . وقد ينمو الجنين ويولد الطفل مصاباً بنوع من الصور الولادية مثل المغولي وصور القلب الولادية كالثقب بين البطينين أو بين الأذينين أو غيره من الأشكال الولادية الكثيرة المعروفة. . وقد يولد الطفل عادياً في مظهره ونموه ولكنه يحمل عناصر الصور الولادية التي تظهر في سن متأخرة وقد يولد الطفل عادياً في كل شيء إلا أنه يحمل الاستعداد للاصابة ببعض الأمراض التي تبدأ في الظهور في سن متقدمة. . وقد يولد الطفل عادياً ويحيا حياة طبيعية تماماً إلا أنه ينقل

الصفات المحمولة على صبغياته إلى نسله من بعده كمرض موروث يظهر في جيل ويختفي في جيل أو أجيال ولكن الأوامر الخاصة به تظل محمولة على الصبغيات كامنة فيها بصورة مستترة جيلاً بعد جيل . .

والصور الولادية الناتجة من تغيرات الصبغيات صور كثيرة ويكتشف منها الجديد من وقت لآخر . .

فبين كل ألف مولود حي يوجد حوالي خمسة أطفال يحملون داخل خلاياهم صبغيات مختلفة التركيب أو العدد . . بينما ترتفع النسبة بين الأجنة إلى أكثر من ذلك بكثير حيث تؤدي تلك التغيرات إلى كثير من حالات الاسقاط أو الاجهاض نتيجة لنمو الجنين بصورة لا تستقيم معها حياته فيموت داخل الرحم ومن المعروف أن التغيرات في الصبغيات قد تصيب الصبغيات البدنية Autosomes كما تصيب الصبغيات الجنسية Sex Chromosomes المعروفة بـ « Y » و« X » . وتصيب التغيرات المرتبطة بالصبغيات الجنسية Sex - Linked الصبغي X (الأنثوي) دون الصبغي Y (الذكري) . فلم يعرف عن تغيرات الصبغي الذكري Y غير ظَاهِرَةَ كثافة شعر الأذنين Hairy Ears في حين ترتبط صور خلقية كثيرة بتغيرات الصبغي الأنثوي Xومع ذلك فانها تصيب الذكور أكثر من الاناث مثل أمراض الناعور Hemophilia ومرض التضخم الكاذب للعضلات المعروف بمرض Duchenne وكذلك أنيميا البحر المتوسط والعشى الليلي وعمى الألوان في حين يصيب مرض الكساح المقاوم لفيتامين «د» الاناث أكثر من الذكور وهو مرض يرتبط كذلك بالصبغي الأنثوي .

وتتعدد الصور الخلقية الناتجه من تغيرات الصبغيات البدنية Autosomes غير الجنسية وتصيب الذكور والأناث بنسب متفاوتة . .

فالطفل المغولي مثلاً ذو التقاطيع المغولية قد يولد ويحيا حياة طبيعية دون أي مرض وقد يولد ولديه تخلف عقلي أو صورة من صور القلب الخلقية أو قد يصاب بنوع من أنواع سرطان الدم الحاد، وذلك كله يرتبط بوجود صبغي زائد في مجموعة الصبغيات رقم ٢١ حيث يوجد منها ثلاثة صبغيات بدلاً من اثنين فقط. . بينما تؤدي التغيرات في اعداد صبغيات المجموعة ١٣ أو المجموعة ١٨ إلى تغيرات شديدة تؤدي إلى الوفاة السريعة للطفل بعد ولادته. . وعلى سبيل المثال نذكر بعض الأمراض المرتبطة بتغيرات الصبغيات البدنية مثل مرض القزامة Achondroplasia والخلل البنائي للعظام Osteogenesis Imperfecta ومرض ترسيب الحديد الابتدائي في الأنسجة Hemochromatosis وضمور عضلات الوجه والاكتاف والذراعين، ومرض الخلايا الكروية الموروث Spherocytosis وكوريا Huntington، وارتفاع تركيز البروتينات الدهنية في الدم، ومرض ضمور العضلات التوتري Myotonia Atrophica وأورام الأعصاب المتليفة Neurofibromatosis، وتحوصل الكليتين، والأورام القولونية Polyposis وتمدد الأوعية الدموية، ومرض الألبينو Albinism، ومرض أختزان الجليكوجين وغيرها.

وتبرز التغيرات في الصبغيات كعامل هام جداً في حدوث كثير من الأمراض التي قد تشترك عوامل أخرى بيئية واجتماعية وغيرها في اظهارها ونذكر منها على سبيل المثال أمراض الديابيط السكري وانفصام الشخصية، والربو الشعبي، وضيق فتحة البواب (بين المعدة والاثنى عشر)، وتصلب الشرايين التاجية، وارتفاع ضغط الدم، وتقوس القدمين Club - Foot وانخلاع مفصل الفخذ وقرحة المعدة،

وبعض الأمراض العقلية وغيرها. وهي أمراض تصيب الجنسين ذكوراً واناثاً ويبدأ ظهورها بعد الولادة بفترات قد تطول إلى عشرات السنين ومع ذلك فان أحد أسسها الرئيسية هي الصفات الموروثة المحمولة على الصبغيات كأوامر خاصة بالاستعداد لتلك الأمراض.. وحين تختفي العوامل الطارئة فقد لا يحدث المرض ولكن الاستعداد له ينتقل إلى الجيل التالي عن طريق صبغيات الحيوان المنوي أو البويضة ومعنى ذلك أنه إن كان أحد الزوجين أو كلاهما مصاباً مثلاً بمرض الديابيط السكري فليس من الضروري أن يصاب أي من أبنائهما بالمرض ولكن المرض قد يظهر بعد ذلك بين أحفادهم أو أحفاد أبنائهم.

ومن أمثلة الأمراض ذات الأسس الموروثة والتي تصيب الذكور بنسبة أعلى من الاناث نجد نسبة الإصابة بين الذكور مقارنة بالاناث تصل إلى ٢٠ : ١ بالنسبة لمرض النقرس، و٥ : ١ بالنسبة لضيق فتحة البواب، و٤ : ١ في مرض القولون العملاق Megacolon و٢ : ١ في مرض تقعر القدم ـ Club foot، بينما تنعكس النسبة في مرض خلع مفصل الفخذ وكذلك اعوجاج العمود الفقري Scoliosis لتصبح ١ : ٦، بينما نجد أن النسبة ٢ : ٣ في أمراض انشقاق الشفة وسقف الفم ومرض الدهان الخيلي الخمودي Manic Depressive Psychosis وانشقاق أشواك الفقرات Spina bifida بينما يصاب كلا الجنسين بأمراض أخرى بنسب متكافئة مثل انفصام الشخصية Schizophrenia والتخلف العقلي والصمم الولادي والصرع والديابيط السكري أما ما يتعرض له الذكر والأنثى من أمراض طارئة طوال حياتهما فنسبة الاصابة بها تحددها ظروف التعرض لمسببات المرض.. ولا يأخذ انتشار المرض بين الجنسين شكل القاعدة العامة.. وقد تبدو مناعة

الاناث ضد بعض الأمراض واضحة قبل سن اليأس إلا أنها بعد هذه السن تتساوى مع الذكور في نسبة الاصابة بتلك الأمراض مثل أمراض تصلب الشرايين واحتشاء عضلة القلب. . . وقد لوحظ أن بعض الأمراض تقتصر في حدوثها على جنس دون آخر مثل مرض Burger الذي يصيب الشرايين والأوردة والأعصاب الطرفية مسببا غرغرينا الأطراف وكان مقصورا على الذكور ومرتبطاً بعادة التدخين إلا أنه بدء يظهر بين الاناث نتيجة لانتشار تلك العادة بينهن. . وعموماً فإن انتشار كثير من الأمراض قد يربط بالمهنة التي يمارسها الرجل أو المرأة مثل التعرض للكيماويات والسموم والاشعاعات والتوتر والقلق والارهاق البدني والعصبي. . . وكذلك فان كل جنس معرض للإصابة بأمراض الأجهزة التناسلية التي تصيب الأعضاء التناسلية وقد تنتقل منها إلى باقي الجسم أو إلى الزوج بالعدوى نتيجة الاتصال الجنسي أو غير الجنسي.

وخلاصة القول إن الذكر والأنثى معرضان للإصابة بالأمراض في مختلف أعمارهم. . وان تميزت بعض الأمراض باقتصارها على أحد الجنسين أو بكثرة حدوثها بين هذا الجنس عن الآخر إلا أن نسبة الإصابة بالأمراض المختلفة عامة متساوية تقريباً بين الجنسين. . ونسبة المواليد من الجنسين متقاربة وكذلك نسبة الوفيات بصورة عامة. . وكل ذلك من أمر الخالق عز وجل ومشيئته ليظل التوازن بين الجنسين في مختلف بقاع الأرض وعلى امتداد الوجود البشري في الأرض. فلا يطغى جنس على جنس ولا يختل التوازن بين الأزواج من بني آدم. . حتى أنه بعد حربين عالميتين هلك فيهما الملايين من الذكور لو نظرنا إلى تعداد العالم لوجودنا أن التوازن بين الزوجين الذكر والأنثى قد عاد من

جديد حتى داخل تلك البلاد التي عانت أكثر من غيرها وفقـدت معظم ذكورها مثل المانيا واليابـان وغيرهـا. . ﴿فسبحان الـذي بيده ملكـوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ [يس/٨٣] .


تنسيق
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

إصدارات

دار النهضة الإسلامية

□ النهضة .... حافظ صالح
□ الديمقراطية وحكم الإسلام فيها .... حافظ صالح
□ مفهوم العدالة الاجتماعية في الفكر الإسلامي المعاصر .... إحسان سمارة
□ الإسلام ضامن للحاجات الأساسية
لكل فرد ويعمل لرفاهيته .... الشيخ عبد العزيز البدري
□ المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية .... إياد هلال
□ نهج القرآن الكريم في الدعوة .... حافظ صالح
□ قضية فلسطين (الجذور والحل) .... إياد هلال
□ سلسلة (ديوان الضياء) .... للشاعر يوسف إبراهيم
١ ـ الفجر الجديد
٢ ـ قبسٌ من حراء
□ طريق العزة .... يوسف السباتين
□ نقض الاشتراكية الماركسية .... غانم عبده
□ الطـريق إلى الخـلافـة (مختصر كتـاب « غيـاث الأمم في التيـاث الظلم»
للجويني) .... إختصار وتعليق محمد شاكر الشريف
□ النظرية السياسية الإسلامية في
حقوق الانسان الشرعية د. محمد أحمد مفتي و د. سامي صالح الوكيل
□ ردٌ على مفتريات حول حكم الربا وفوائد البنوك .... محمد أحمد الداعور
□ التلويث الفكري والإعلامي في العالم الإسلامي .... عايد الشعراوي
□ الأزواج من سنن الله في خلقه .... الدكتور السيد سلامه السقا
□ النوم والرؤى والاحلام: نظرة طبية وإسلامية .... الدكتور السيد سلامه السقا
□ الزمن: نظرة علمية وإسلامية .... الدكتور السيد سلامه السقا
□ الانسان: نظرة طبية وإسلامية .... الدكتور السيد سلامه السقا


تنسيق
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com


تنسيق
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com